تجليد مكتب
صالح الدقر

[redacted] C.1

لوبون، غوستاف.

روح الاجتماع.

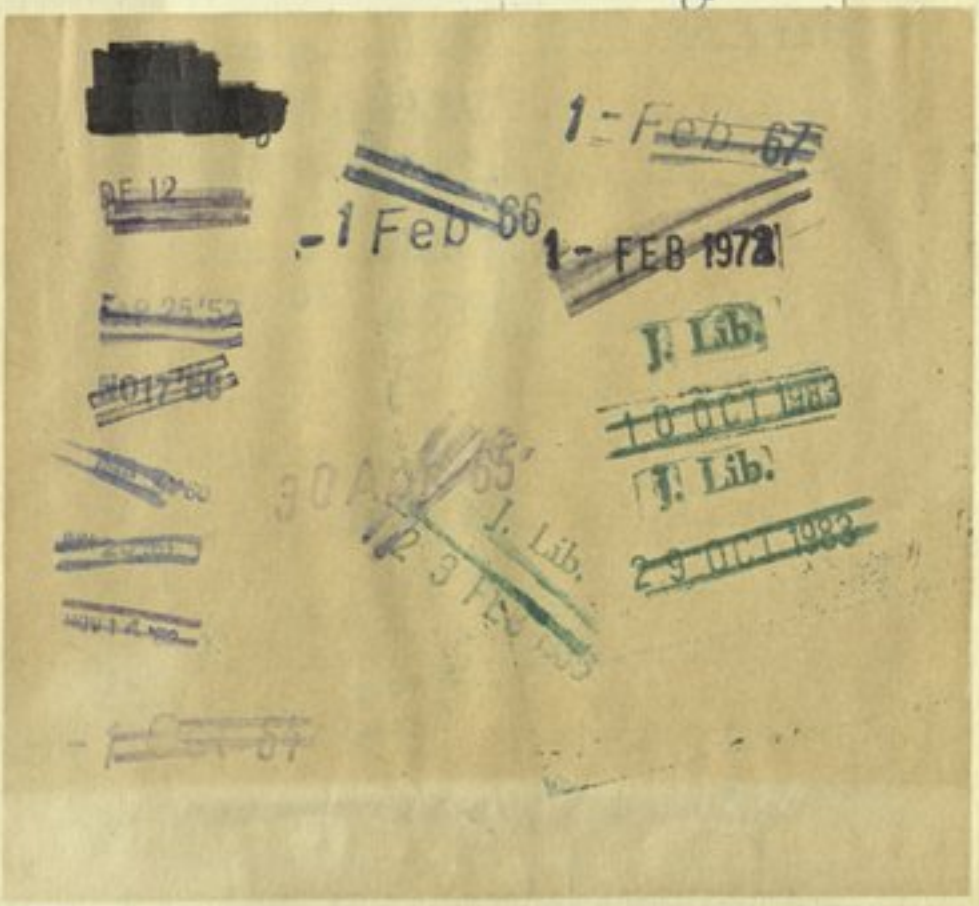

301
L447pzA
1909
C.1

LIBRARY

روح الاجتماع

تأليف

الدكتور جوستاف لوبون

ترجمه من اللغة الفرنساوية

احمد فتحي زغلول باشا

وكيل نظارة الحقانية

حقوق الطبع محفوظة للملتزم

28859

خليل صادق

صاحب مجلة مسامرات الشعب

مطبعة الشعب لشارع محمد علي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله وصحبه وآله

قرأت مؤلفاً جديداً للعالم الفرنساوى المعروف الدكتور جوستاف لوبون صاحب كتاب « تمدن العرب » وضعه فى بيان أحوال الجماعات وما يعرض للفرد مجتمعاً من تغير المشاعر واختلاف النظر وتبدل حكمه فيما يحيط به وسماه « روح الاجتماع » ورأيت فى نقله الى العربية فائدة لأهلها فاستأذنت المؤلف فى ذلك فتفضل بالأجازة

طُلب منى أن أضع مقدمة تشرح بعض الشرح موضوع الكتاب وتبين طرفاً مما اشتمل عليه فترددت كثيراً ثم رأيت أن أترك الشرح والبيان للقراء أنفسهم واذا كنت نقلت الكتاب الى العربية نقلا صادقاً صحيحاً فان معانيه تنساب فى نفس قارئيه من دون احتياج الى شرح ولا رجوع الى بيان ؟

القاهرة فى اكتوبر سنة ١٩٠٩ احمد فتحى زغلول

اهداء الكتاب من المؤلف

الى تيوفيل ريبو مدير المجلة الفلسفية واستاذ علم النفس فى المدرسة الفرنساوية
علامة مودة

جوستاف لوبون

مقدمة المؤلف

خصصنا كتابنا السابق للكلام على الحالة النفسية للشعوب والآن نبحث فى الحالة النفسية للجماعات

تتكون روح كل شعب من مجموع صفات وخلال تتولد فى افراده بالتوارث لكن اذا اجتمع عدد من أولئك الافراد للقيام بعمل من الاعمال تولدت عن اجتماعهم هذا أحوال نفسية جديدة ترتكز على أحوال للشعب وقد تختلف عنها فى كثير من الاوقات اختلافاً كبيراً

كان للجماعات المنظمة على الدوام تأثير كبير فى حياة الامم الآ ان هذا التأثير لم يبلغ فى زمن من الازمان مبلغه فى الزمن الحاضر فقد حل فى أيامنا هذه تأثير الجماعات على غير قصد منها محل تأثير الافراد المقصود لأربابه بالطبيعة وأصبح من أخص صفات الحياة الحاضرة

وانى أحاول البحث فى موضوع الجماعات على صعوبته بالوسائل العلمية المحضة أعنى انى أريد ان اتبع فيه نسقاً مؤسساً على قواعد العلم غير ملتفت الى الآراء والنظريات والمذاهب الجارية مجرى الامور المسلم بها لأنى أرى أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لاقتناص بعض شوارد الحقيقة ولا سيما اذا كان الموضوع مما يشغل الافكار مثل موضوعنا فالعالم الذى يرمى ببحثه الى تقرير أمر من الامور لا يهتم بما عسى أن يصطدم مع هذا التقرير من المنافع والمصالح ـ قال عنى أحد كبار المفكرين وهو موسيو « جوبليه دالفيالا » فى كتاب نشرناه حديثاً انى كثيراً ماخالفت فى نتائج ابحاثى ما اتفق عليه الباحثون من أرباب المذاهب العصرية لانى لست تابعاً لواحد منها وانى لأرجو ان يكون حظ كتابى هذا من تلك الملاحظة حظ سابقيه اذ الانضمام الى مذهب يقتضى التحيز اليه والتزام ما فيه من الأوهام

على انى أرى من الواجب ان أوضح للقراء السبب فى انى استخلص من بحثى نتائج تخالف التى يظهر بادىء بدء انها تتأتى له اللازمة كتقريرى مثلا انحطاط القوة المفكرة عند الجماعات حتى التى تتألف من نوابغ أهل الفضل وذهابى مع ذلك الى انه من الخطر المساس بها أو العبث بنظامها

ذلك لأن اطالة التأمل فى حوادث التاريخ دلتنى دائماً ان المجتمعات الانسانية عويصة التركيب كالافراد سواء بسواء فليس فى يدنا أن نحولها فجأة من حال الى حال نعم يتفق ان تحدث الطبيعة تغييراً كلياً فجائياً الا ان ذلك لا يكون تابعا لأرادتنا أبداً لذلك كان حب بعضهم للاصلاحات الكلية من أسوأ المؤثرات فى الامم مهما دل النظر على حسنها لأنها لا تكون مفيدة الا اذا كان فى الامكان تغيير روح الأمة تغييراً فجائياً والزمان وحده هو صاحب هذا السلطان والذى يحكم الناس مجتمعين انما هى الافكار والمشاعر والعادات وكلها أمور موجودة فينا وحينئذ ليست القوانين والنظامات الا صورة من صور النفس العامة التى لنا وممثلة حاجاتها واذا كانت القوانين والنظامات صادرة عن النفس فهى لن تستطيع تغييرها

واعلم أنه لا يجوز فصل البحث فى الأحوال الاجتماعية عن البحث فى الامم التى ظهرت تلك الاحوال فيها لأنه ان صح نظراً أن لهذه الاحوال قيمة مطلقة فمن المحقق أن قيمتها عملا نسبية دائماً

لذلك ينبغى عند البحث فى حال من أحوال الاجتماع أن ينظر اليها من جهتين مختلفتين تماماً وحينئذ ينجلى للباحث أن تعاليم النظر المحض تخالف غالباً تعاليم النظر العملى وليس من النتائج حتى نتائج الابحاث الطبيعية ما يشذ عن هذه القاعدة الا يسيراً انظر الى مكعب أو دائرة تجدها من حيث الحقيقة المطلقة صوراً حسابية ثابتة لها صيغ تضبطها ضبطاً دقيقاً لكنها قد تحضر أمام العين بصور مختلفة فقد ترى المكعب هرماً أو مربعاً وقد ترى الدائرة قطعاً ناقصاً أو خطاً مستقيما ويجب الاهتمام بهذه الصور الصورية أكثر من الاهتمام بتلك

الصور الحقيقية لأنها هى التى تتراءى أمامنا وهى التى يمكن للرسم أو لآلة التصوير أن تنقلها لنا ومن هنا جاز القول بأن الصورى حقيقى أكثر من الحقيقى فى بعض الاحوال لأن تشخيص الاشكال الهندسية بصورها الحسابية المنضبطة عبارة عن تشويه طبيعتها وجعلها تخفى على الناظرين فلو فرضنا عالماً لا يسعهم الا رسم الاشياء أو نقلها بآلة التصوير من دون أن يتمكنوا من لمسها لتعسر عليهم استحضار صورتها الحقيقية فى اذهانهم على أن معرفة تلك الصورة الحقيقية من العدد القليل أعنى العلماء لا يفيد الا فائدة صغيرة جداً

اذن وجب على الحكيم الذى يبحث فى الأحوال الاجتماعية أن لا يغفل عما لهذه الاحوال من القيمة العملية بجانب قيمتها العلمية وان الأولى هى التى لها شىء من الأهمية فى تطور المدنيات وملاحظة ذلك تقتضى الحيطة والحذر من الوقوف عند ما قد يسوق اليه الاستنتاج المنطقى بادىء بدء

وهناك أسباب أخرى تدعو الى هذا الحذر منها أن الاحوال الاجتماعية عويصة مشتبكة يتعذر على الباحث أن يحيط بها كلها وأن يتعرف ما لها من التأثير وما بينها من التفاعل ومنها أن وراء الحوادث الظاهرة مؤثرات خافية كثيرة جداً اذ يظهر أن الأولى ليست الا نتيجة عمل عظيم يقع على غير علم منا وهو فى الغالب فوق بحثنا فمثل الحوادث الظاهرة مثل الأمواج المتلاطمة التى تترجم فوق سطح البحر عما هو واقع فى جوفه من الاضطرابات التى خفيت عنا ونحن اذا نظرنا الى الجماعات نراها تأتى من الاعمال بما يدل على انحطاط مداركها انحطاطاً كلياً غير أن لها أعمالا أخرى يظهر انها منقادة فيها بقوة خفية سماها الاقدمون قدراً أو طبيعة أو يداً صمدانية وسماها أهل هذا الزمان (صوت من فى القبور) وعلى كل حال لا يسعنا أن ننكر ما لها من القوة وان جهلنا كنهها وكثيراً ما يظهر أن فى باطن الأمم قوى كامنة ترشدها وتهديها انك لا تجد شيئاً اكثر تعقيداً ولا أدق ترتيباً واجمل خلقاً من اللغة وما مصدر هذا الشىء الغريب فى نظامه العجيب فى أسلوبه الا روح الجماعات تلك الروح اللاشاعرة وأعلم المجامع العلمية وأرقى

النحويين انما يجهدون النفس فى تدوين قواعد اللغات وهم لا شك عاجزون عن خلقها كذلك لسنا على يقين من أن الافكار السامية التى يحدثها النابغون من فطاحل القوم انما هى عملهم خاصة نعم هم الذين أوجدوها ولكن لا ينبغى أن ننسى أن ذرات التراب التى تراكمت فصارت منبتاً لتلك الافكار انما كونتها روح الجماعات التى وجد اولئك النابغون فيها

تتجرد الجماعات دائماً عن الشعور بعملها وقد يكون هذا هو السر فى قوتها على أنا نشاهد فى الطبيعة أن الذوات الخاضعة لمجرد الألهام تأتى بأعمال دقيقة يحار الانسان فى معرفة جليل صنعها ذلك أن العقل جديد فى الوجود الانسانى وفيه نقص كبير فلا قدرة لنا به على معرفة قوانين الافعال اللاشعورية فما بالك ان حاولنا وضع غيرها فى مكانها ان نصيب اللاشعور فى جميع أعمال الانسان عظيم وافر ونصيب العقل فيها صغير للغاية والاول يعمل ويؤثر كقوة لا تزال معرفتها غائبة عنا

وعليه اذا أردنا أن نقف عند الحدود الضيقة المأمونة فى معرفة الاشياء من طريق العقل ولا نهيم فى أودية التخمينات البهمة والفرضيات العقيمة لزمنا أن نقتصر على تقرير الحوادث التى تقع تحت حواسنا وكل استنتاج مبنى على هذه المشاهدات بعد ذلك يكون تسرعاً فى غالب الاحيان لانه يوجد خلف الحوادث التى نراها جيداً حوادث لا نراها الا رؤيا ناقصة وقد يكون وراء هذه غيرها مما لا نراه أصلا

تمهيد

زمن الجموع

تطور أهل الوقت الحالى — فى أن تغييرات المدنية العظيمة نتيجة أفكار الامم — اعتقاد أهل هـذا العصر بقوة الجماعات — فى أن هذا الاعتقاد يحول الدول عن سياستها التقليدية — كيف تسود سلطة طبقات الامة وكيف تجرى تلك السلطة — النتيجة اللازمة لسلطة الجماعات — فى أن الجماعات لا تستطيع الا الهدم — فى أنها هى التى تجهز على المدنية التى وهن بناؤها — فى الجهل العام بأحوال الجماعات النفسية — أهمية الوقوف على تلك الأحوال عند الشارع والسياسى

—

يخال الناظر فى أحوال هذا الكون أن الانقلابات العظيمة التى تتقدم تطور المدنية فى الامم مثل سقوط الدولة الرومانية وقيام الدولة العربية ناشئة عن تطور سياسى عظيم كأغارة الامم بعضها على بعض أو سقوط الأسر الحاكمة وهكذا لكن بعد انعام النظر فى هذه الحوادث يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة فى الغالب سبباً حقيقياً هو التغير الكلى فى أفكار تلك الامم فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هى التى تدهش الباحثين بعظمها وعنفها وانما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذى يؤدى الى تغيير حال الامم المدنية يحصل فى الافكار والتصورات والمعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة فى بطون التواريخ ليست الا آثاراً ظاهرة لتغير خفى فى افكار الناس واذا كانت تلك الانقلابات العظيمة نادرة الحدوث فذلك راجع الى أن أشد اخلاق الامم رسوخا عندها هو التراث الفكرى الذى ورثته عن آبائها

وأحرج الازمان فى تطور الفكر الانسانى زماننا هذا ولهذا التطور عاملان اصليان

الاول تهدم المعتقدات الدينية والسياسية والاجتماعية التى تتكون منها عناصر المدنية الحاضرة

والثانى قيام أحوال جديدة ونشوء أفكار جديدة فى الحياة تولدت كلها من الاكتشافات العصرية العلمية والصناعية

ولما كان تهدم الافكار القديمة لم يتم فلم تزل قوتها وكانت الافكار التى ستحل محلها فى دور تكونها كان الزمن الحاضر زمن تحول وفوضى

ومن المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يوماً من الايام من هذا الوقت المشوش كما اننا لا نعرف حتى الآن على أى الافكار الأساسية والمبادىء الاولية يقوم بناء الامم التى تخلفنا ولكن الذى نراه منذ الساعة انه سيكون أمام تلك الامم قوة عظيمة لا بد لها من الاعتداد بها لأنها اكبر قوة وجدت أريد بها قوة الجماعات تلك القوة التى قامت حتى الآن وحدها على أطلال الافكار البالية التى كان الناس يعتقدونها حقائق وماتت وعاشت بعد أن حطمت الثورات المختلفة كل سلطة كانت تتحكم فى الناس وهى القوة التى يظهر لنا أن مصيرها ابتلاع ما عداها فى القريب العاجل ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن آساسها وان اساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم وان سلطة الجماعات هى وحدها التى لا يهددها طارىء بل هى تعظم وتنمو وعليه فالدور الذى نحن قادمون عليه هو دور الجماعات لا محالة

كان المؤثر فى الحوادث التاريخية منذ قرن واحد هو السياسة التقليدية للدول ومنازعات ملوكها ولم يكن لرأى الجموع وزن يذكر بل لم يكن له قيمة أصلا فى الغالب — أما الآن فالسياسة التقليدية هى التى أصبحت لاوزن لها ولا أثر للمنازعات الشخصية بين الملوك بل صارت الغلبة لصوت الجماعات فهو الذى يرسم للملوك خطتهم وهو الذى يجتهد الملوك فى الاصغاء اليه وأمسى مصير الأمم راجعاً الى ما تحمله روح تلك الجماعات لا الى ما يراه اصحاب مشورة الامراء

تغلوس طبقات الامم على عرش السياسة اعنى تطور تلك الطبقات حتى صارت قادة لدولها هو من أخص مميزات زمن التحول الذى نحن فيه وليس حق الانتخاب العام هو الدليل الصحيح على هذا التطور لأن هذا الحق بقى ضعيف الاثر زمناً طويلا وكان فى مبدأ أمره سهل القياد وانما تولدت سلطة الجماعات رويداً رويداً بانتشار بعض الافكار التى رسخت فى الاذهان أولا وبتدرج الافراد فى تكوين الجماعات للوصول الى تحقيق تلك النظريات ثانياً فالاجتماع هو الذى ولد فى الجماعات قوة ادراك منافعها ومع كونه ليس ادراكا تاماً فهو ثابت متين والاجتماع هو الذى جعلها تشعر بما لها من القوة والسلطان وهذا أصل تأسيس الجمعيات (السنديكات) التى تخضع أمامها السلطات واحدة بعد الاخرى وغرف التجارة (البورصات) التى تطمح الى السيطرة على العمل وأجور العمال وان خالفت فى حكمها قواعد الاقتصاد وأصول تدبير الثروة العامة

والجماعات هى التى تبعث اليوم الى المجالس النيابية لدى الحكومة بوكلاء تجردهم من كل حركة شخصية وكل استقلال فلا يكون لهم من الرأى الا ما رأته اللجان التى انتخبتهم

أخذت طلبات الجماعات الآن تترقى فى مراتب الوضوح وهى لا ترمى الى أقل من قلب الهيئة الاجتماعية الحاضرة رأساً على عقب لترجع بها الى حالة الاشتراك الأولى التى كانت عليها العشائر قبل بزوغ شمس المدنية — تطلب الجماعات تحديد ساعات العمل ونزع ملكية المعادن والسكك الحديدية والمعامل والمصانع والاطيان وتطلب توزيع الثمرات بين جميع الناس على السواء واحلال الطبقات الوضيعة محل الطبقات الرفيعة وغير ذلك

الجماعات أقدر على العمل منها على التفكير وقد أصبحت بنظامها الحاضر ذات قوة كبرى وعما قريب يكون للمذاهب التى نراها اليوم فى دور التكون من السلطان العظيم على الأفكار ما للمذاهب التى رسخت أصولها فى الاعتقادات أعنى سلطاناً مستبداً لا تأثير فوق تأثيره فلا تعود تحتمل البحث أو الجدال

وحينئذ يقوم حق الجماعات المقدس مقام حق الملوك الاقدسين

ولقد استولى الهلع على قلوب الكتاب الذين لهم منزلة لدى الطبقات الوسطى فى الامم وهم الذين يمثلون اكثر من غيرهم أفكارها الضيقة ونظرها القصير ويأسها غير المبنى على التأمل الصحيح وحب الذات البالغ غايته فخشوا عاقبة ذلك السلطان الجديد الذى أخذ ينمو ويعظم ومالوا الى مقاومة ما استحوذ على الافكار من الاضطراب فولوا وجوههم قبل الكنيسة مستصرخين بسلطانها الادبى وتأثيرها الروحى بعد أن بالغوا فى احتقارها وغالوا فى اهمال جانبها ونادوا بافلاس العلم فى طريق تهذيب النفوس فهم يرجعون من روما تائبين منيبين يدعوننا الى الرجوع للتمسك بحقائق الوحى والتنزيل وفات اولئك المتدينين من جديد أن الوقت قد فات — واذا صح أن الفيض الالهى أخذ من نفوسهم فانه لن ينال من نفوس جماعات لا تعتد كثيراً بما يقلق ضمائر اولئك الزهاد فلم تعد ترغب فى الأرباب التى رغبوا هم عنها بالامس وكان لهم نصيب فى تحطيمها وليس فى طاقة البشر ولا مما تتعلق به القدرة الالهية جعل مياه الانهار تصب فى ينابيعها

ما أفلس العلم ولا ذنب له فى فوضى الافكار التى انتشرت فى هذا الزمان ولا فى سلطة الجماعات التى تنمو وسط تلك الفوضى انما العلم وعدنا كشف الحقيقة أو على الأقل بيان النسب التى تربط الأمور بعضها ببعض مما نقدر على ادراكه لكنه ما وعدنا السلام ولا السعادة أبداً والعلم جماد بالنسبة لمشاعرنا وأصم لا يصل اليه صراخنا وانما نحن الذين يجب عليهم أن يحملوا أنفسهم على الاتفاق معه اذ لا شىء يقدر أن يعيد لنا تلك الأوهام التى فرت أمام نوره

توجد علامات عامة ظاهرة فى جميع الأمم تدل على سرعة نمو سلطان الجماعات نمواً لارجاء فى وقوفه آجلا ونحن خاضعون لحكمه حاملون كل ما أنتج بالقهر عنا فكل قول فيه باطل لا فائدة منه ومن الجائز أن تولى الجماعات قياد الامم يكون خاتمة أدوار مدنية الغرب فيرجع الى الانغماس فى أودية الفوضى التى يخال انه لابد لكل أمة من اجتيازها قبل الوصول الى دور الحضارة والرقى ولكن

يجب على المصلح ان يخوف روح الجماعة الاصيلة ولا يخدش بطاهر تلك الروح التي لا تحتمل على حقيقتها . ان المصلح ينفذ الى اعماق روح الجماعة ويطلب منهم ان يحاسبوا انفسهم كل ما ليس فيهم من اصالة وقد يسأل . المصلح الحق لا يسأل اصحاب الجماعة آين السبيل الى منع ماهو كائن الرصين يقول لا اقتداء الجراحين

ينحصر الاثر الواضح لعمل الجماعات حتى الآن فى هدم صروح المدنية فالتاريخ يدلنا على انه كلما وهنت القوى الادبية التى يقوم عليها بناء تقدم أمة من الامم كانت خاتمة الانحلال على يد تلك الجماعات الوحشية اللاشعورية التى سميت بحق متبربرة أما الذين أقاموا صروح المدنية وشيدوا أركان الحضارة فهم نفر امتازوا بسمو المدارك وبعد النظر ولكننا لم نر حتى الآن للجماعات أثراً مثل هذا فهى انما تقدر على الهدم والتحطيم وزمان حكمها زمان بربرية على الدوام لأن المدنية لاتقوم الا على مبادىء مقررة ونظام ثابت وانتقال من العمل بمقتضى الغريزة الى الاهتداء بنور العقل والبصر بالمستقبل ومرتبة راقية من العلم والتهذيب وتلك وسائل برهنت الجماعات على انها غير أهل لتحقيقها اذا تركت وشأنها - ومثل الجماعات فى قوتها الهادمة مثل المكروبات التى تعجل بانحلال الاجسام الضعيفة وتساعد على تحلل الاجساد الميتة فاذا نخرت عظام مدنية تولت الجماعات نقض بنائها هنالك يظهر شأنها الأول ويخيل لنا بادىء بدىء أن العامل فى حوادث التاريخ هو كثرة العدد نهتم بالسيدة وليس بالعدد . نحن لا ندفع رعية الجماعة الرشالة وانما نرفق بهم روح

انا لنخشى أن يكون هذا أيضاً مصير مدنيتنا لكن ذلك الذى لا نعرف منه شيئاً حتى الآن

وكيفما كان الحال فلا مندوحة لنا عن الخضوع لحكم الجماعات لأن أيدياً طائشة أزالت بالتدريج جميع الحواجز التى كانت تمنع من طغيانها

كثر الكلام على الجماعات ونحن لانعرف من حالها الا يسيراً لأن المشتغلين بعلوم النفس عاشوا بمعزل عنها فجهلوا أمرها على الدوام وانما اشتغلوا بها فى الايام الاخيرة من جهة ماقد ترتكب من الجرائم والآثام نعم توجد جماعات شريرة الا ان هناك أيضاً جماعات فاضلة وجماعات ذات شجاعة وهكذا فالنظر اليها من حيث الشر وحده نظر للشىء من جهة واحدة ولا يتوصل الباحث لمعرفة ادراك الجماعات ببحثه فى الجرائم التى قد تصدر عنها كما انه لايتوصل الى معرفة ادراك

الفرد بالبحث فى عيوبه خاصة

ومع ذلك فان الذين سادوا على العالم وساسوا الأمم والممالك ممن شرعوا الاديان وأسسوا الدول ورسل المذاهب كلها وأقطاب السياسة حتى رؤساء العشائر الصغيرة كانوا دائما من علماء النفس وهم لايشعرون فكانوا يعرفون روح الجماعات معرفة فطرية وكانت تلك المعرفة صادقة فى أغلب الاحايين ومعرفتهم لذلك جيداً هى التى مكنتهم من السيادة عليها كان نابليون واسع الخبرة بأحوال الجماعات النفسية فى البلاد التى انبسطت يده عليها ولكنه جهل غالباً روح الجماعات فى شعوب أخر كذلك كان شأن أكبر مستشاريه فانهم أيضاً لم يفقهوا حقيقة حال الجماعات الاجنبية عن أمتهم فقد كتب له (تاليران) ان اسبانيا تلاقى جيوشه لقاء المنجدين فلما زحفت اليهم استقبلتهم كما تستقبل الوحوش الكاسرة ولو انه كان على شىء من العلم بما ورثت تلك الأمة من الأميال لسهل عليه معرفة هذا الاستقبال . ذلك هو السبب فى ان نابليون تاه فى بلاد الاسبان وفى بلاد الروسيا على الاخص بحروب كانت عاقبتها التعجيل بسقوطه

معرفة روح الجماعات أصبحت اليوم اخر ملجأ يأوى اليه السياسى العظيم لا لاجل أن يحكمها فقد صار ذلك الآن صعباً كثيراً بل ليخفف عنه شدة تأثيرها

واذا أردنا أن نعرف ضعف تأثير القوانين والنظامات فى الجماعات فانما السبيل الى ذلك تدقيق البحث لمعرفة روحها والوقوف على أحوالها النفسية وبذلك نفقه ايضاً انه لا قدرة لها على تكوين رأى او التفكير فى شىء خارج عن الدائرة التى رسمت لها وانها لا تقاد بقواعد العدل النظرية بل بالبحث عما من شأنه التأثير فيها واختلابها فلو اراد واضع فرض ضريبة جديدة وجب عليه ان لا يختار التى هى اقرب للعدل من حيث قواعد الاقتصاد فى ذاتها فربما كان أبعدها عن العدل اكثرها قبولا بالفعل عند الناس فان كانت هذه الاخيرة ايضاً اقل وضوحاً وأخف حملا فى الظاهر كان ذلك أدعى الى قبولها لهذا كانت الضريبة المقررة مقبولة لدى الجمهور كيفما كانت باهظة لانهم يؤدونها تدريجاً على أقسام صغيرة عند شراء

حاجاتهم اليومية فهى لا تضيق عليهم فيما القوه ولا تؤثر فيهم لذلك تأثيراً غير محمود فاذا بدلت هذه الضريبة بضريبة الايراد أو الاجور بحيث يدفعونها مرة واحدة علت أصوات الشكوى من كل جانب ولو كانت هذه الضريبة أخف من تلك عشر مرات ذلك لأن مبلغاً ذا قيمة ظاهرة حل محل فلس يدفع بالتدريج يوما بعد يوم ووجب اداؤه دفعة واحدة وفى ذلك من موجبات الضجر مالا يخفى ولو انهم اقتصدوه درهما الى درهم لبان لهم ضعفه وما شعروا بثقله ولكن هذه وسيلة اقتصادية تقتضى شيئاً من التبصر وذلك مالا تقدر الجماعات عليه

المثال الذى قدمناه من أسهل الامثال ومعرفة صحته ميسورة للكافة وهو لم يغب عن متفرس مثل نابليون لكن المشرعين الذين جهلوا حياة الجماعات لا يدركونه لأن التجارب لما تعلمهم ان الناس لا يسيرون أبداً على مقتضى قواعد العقل وحده

ومن السهل الاكثار من الامثلة التى ينطبق عليها علم روح الاجتماع فمعرفة ذلك العلم توضح وضوحاً تاما عدداً كبيرا من الحوادث التاريخية والاجتماعية يستحيل ادراك حقيقتها بدونه وسأبين فى حينه ان السبب فى كون أكبر مؤرخى الأعصر الحاضرة وأعنى به السيو (تاين) لم يفقه تماما بعض حوادث الثورة الفرنسية انما هو لأنه لم يشتغل بالبحث فى روح الجماعات بل استرشد فى الكلام على هذا القسم العويص من التاريخ بطريقة الطبيعيين التى هى تصوير الحوادث ووضعها غير ان القوى الادبية ليست مندرجة فيما يبحث فيه الطبيعيون الا شذوذاً مع ان تلك القوى هى التى تقوم عليها دعائم التاريخ

معرفة أحوال الجماعات النفسية ضرورية سواء أردنا من ذلك جانبها العملى أو الرغبة فى مجرد الوقوف على ماهو كائن فمن المفيد استكناه أسباب الافعال التى تصدر عن الانسان كما انه من المفيد معرفة حقيقة المعدن أو الغراس

سيكون كلامنا فى روح الاجتماع موجزاً بمعنى أنه سيكون تلخيصاً لمباحثنا فلا يطلبن القارىء منه الا بعض افكار ترشد الى غيرها ولغيرنا أن يوغل فى

الموضوع أما نحن فانما نخططه على أرض لا تزال عذراء (١)

(١) قلت ان القليل من العلماء الذين بحثوا فى علم روح الجماعات قصروا بحثهم على الجهة الجنائية منها أما أنا فلم اخصص لهذه الجهة الا فصلا صغيراً من هذا الكتاب لذلك ارجع القراء الى مباحث موسيو (تارد) ورسالة موسيو (سيجيل) التى سماها (الجماعات الجارمة) وتشتمل تلك الرسالة بجانب مباحث مؤلفها الخاصة به على ذكر مشاهدات جمعها من مؤلفات غيره مما تفيد مطالعته علماء روح الاجتماع على أن ما استخلصته أنا من حيث قوى الجماعات العقلية وقابليتها للشر والجريمة تخالف ما ذهب اليه هذان العالمان على خط مستقيم

وسأنشر عما قريب كتاباً أتكلم فيه على روح الاشتراكية وهنالك تتبين اهمية الكثير من قواعد روح الجماعات على أن تلك القواعد تنطبق على موضوعات أخر تخالف الموضوع الذى نحن بصدده

ومن تلك التطبيقات ما شاهده موسيو (جيفيرت) مدير المتحف الموسيقى بمدينة بروكسل فى رسالة كتبها على الموسيقى وسماها اسما جديراً بمسماه وهو (فن الجماعات) وبعث الىّ بنسخة منها مع كتاب يقول فيه — ان كتابيك هما اللذان ساعدانى على مسألة كنت أريد قبل الآن حلها مستحيلا وهى قابلية الجماعات قابلية عجيبة لذوق قطعة موسيقية اذا قام بتمثيلها منفذون يقودهم رئيس ذو حماسة قوية سواء كانت تلك القطعة جديدة أو قديمة وطنية أو أجنبية بسيطة أو مركبة وقد ذكر موسيو جيفيرت فى رسالته ان القطعة الموسيقية قد لا يذوقها اشهر الموسيقيين الذين يطالعونها بسكينة فى كسر بينهم ويدركها لأول وهلة سامعون ليس لهم أدنى الملم بقواعد الفن وأصوله

الباب الأول

روح الجماعات

الفصل الأول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

ما الجماعة عند علماء النفس — فى أن مجرد اجتماع عديد كبير من الافراد لا يكفى لتكوين جماعة — فى اتحاد وجهة أفكار الافراد الذين تتألف الجماعة منهم ومشاعرهم وانعدام شخصياتهم — فى أن الجماعة خاضعة دائماً لحكم اللاشعور — انزواء الحياة الشعورية وظهور الحياة اللاشعورية — انحطاط القوة العاقلة وتغير الاحساس تغيراً كلياً — فى أن ذلك الاحساس المتغير يكون أحسن أو اردأ منه فى الاشخاص الذين تتألف الجماعة منهم — سهولة اندفاع الجماعة الى الشجاعة والى الشر

—

الجماعات بالمعنى المتعارف عليه من القوم مطلقاً وان اختلفوا جنساً وحرفة ذكوراً كانوا أو أناثاً وعلى أى نحو اجتمعوا املاً فى علم النفس فلها معنى أخر ففى بعض الظروف يتولد فى الجمع من الناس صفات تخالف كثيراً صفات الافراد المؤلف هو منها حيث تختفى الذات الشاعرة وتتوجه مشاعر جميع الافراد نحو صوب واحد فتتولد من ذلك روح عامة وقتية بالضرورة الا انها ذات صفات مميزة واضحة تمام الوضوح وحينئذ يصير ذلك الجمع كفيفاً مخصوصاً لم أجد

لتسميته كلمة اليق من لفظ الجماعة المنظمة أو الجماعة النفسية فكأن ذلك اللفيف ذات واحدة وبذلك يصير خاضعاً لناموس الوحدة الفكرية الذى تخضع الجماعات لحكمه

وضح مما تقدم أن مجرد اجتماع أفراد كثيرين اتفاقاً لا يكسبهم صفة الجماعة المنظمة وان الف نفس اجتمعوا عرضاً فى رحبة واسعة لغير قصد معين لا يكونون جماعة عند علماء النفس بل لا بد فى توفر صفات الجماعة من تأثير مؤثرات مخصوصة سنوضحها فيما بعد

ثم أن اختفاء الذات الشاعرة واتجاه الشاعر والافكار نحو غرض واحد وهما الصفتان الاوليان للجماعة أبان انتظامها لا تستلزمان دائماً وجود أشخاص عديدين فى مكان واحد بل قد تتوفر صفة الجماعة النفسية لآلاف من الناس وهم متفرقون اذا تأثرت نفوسهم تأثراً شديداً بحادث جلل كفاجعة عامة فى الامة فان اجتمعوا اتفاقا وهم تحت ذلك التأثير ابدت أعمالهم ثوب أعمال الجماعات لساعتها وقد تتألف الجماعة من بضعة عشر فرداً وقد لا تتوفر هذه الصفة لمئات اجتمعوا اتفاقا وقد تصير الامة كلها جماعة من دون أن يكون هناك اجتماع ظاهر اذا وقع عليها كلها أثر واحد

ومتى تكونت الجماعة النفسية عرض لها صفات عامة مؤقتة لكنها ظاهرة يمكن تحديدها ويقوم بجانب تلك الصفات العامة صفات خاصة تختلف باختلاف العناصر التى تتألف منها الجماعة وربما أثرت هذه الصفات فيما لها من القوة المدركة

وعلى هذا يمكن تقسيم الجماعات النفسية الى انواع وسنوضح عند الكلام على هذا التقسيم انه يوجد للجماعات التى تتألف من عناصر مختلفة والجماعة التى تتألف من عناصر متشابهة (كالعشيرة والطبقة والطائفة) صفات عامة جامعة وان لكل قسم مميزات خاصة به

وقبل الكلام على أنواع الجماعات ينبغى أن نأتى على بيان الصفات العامة

لنكون حذونا حذو الطبيعيين الذين يذكرون أولا الخواص التى تصدق على جميع أفراد كل فصيلة قبل أن يشرحوا الخواص التى تمتاز بها الاجناس والانواع المندرجة فى تلك الفصيلة

ليس من السهل شرح حقيقة روح الجماعات شرحاً دقيقاً لأن نظامها يختلف أولا باختلاف الشعب وتركيب الجمعيات وثانياً باختلاف طبيعة المؤثرات التى تقع على الجمعيات المذكورة غير أن هذه الصعوبة حاصلة عند البحث فى نفس الفرد الواحد لأن الفرد لا يحيى حياة واحدة لا تتغير الا فى القصص والروايات وغاية مافى الامر أن وحدة البيئة تحدث وحدة الخلق فى الظاهر ليس الا وقد بينت فى غير هذا المكان أن فى جميع القوى المدركة استعداداً لتوليد أخلاق جديدة تظهر اذا تغيرت البيئة تغييراً فجائياً هكذا رأينا بين رجال الثورة الفرنساوية افراداً كانوا كالوحوش الضارية وقد كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضل أو موثقين أولى سكينة هادئين فلما سكنت العاصفة عادوا الى سكينتهم وكان لنابوليون منهم أعوان مخلصون

ولما كان لايتيسر لنا أن نشرح هنا نظام الجماعات على اختلاف درجاته وجب أن يكون بحثنا فى التى كمل نظامها فنعرف حينئذ ما قد يؤول اليه أمر الجماعات لا ماهى عليه دائماً خصوصاً اذا لوحظ أن الجماعة التى وصل نظامها الى حد الكمال الممكن هى التى تحدث لها صفات خاصة جديدة ترتكز على مافى مجموعها من الصفات الثابتة التى لعامة الشعب وهى التى تتحد فيها الارادات وتتجه المشاعر نحو مقصد واحد وهى التى يظهر فيها ذلك الناموس الذى سميته فيما تقدم ناموس الوحدة الفكرية للجماعات

ومن الصفات النفسية ما تشترك فيه الجماعة مع الافراد ومنها ما هو خاص بها دون الفرد وسنبدء بالكلام على هذه الصفات الخاصة لنبين مالها من الاهمية

أهم ما تمتاز به الجماعة وجود روح عامة تجعل جميع أفرادها يشعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل

واحد منهم على انفراده وذلك كيفما كان أولئك الافراد وكيفما تباينوا أو اتفقوا فى أحوال معيشتهم وفى أعمالهم اليومية وفى اخلاقهم ومداركهم وعلة ذلك مجرد انضمامهم الى بعضهم وصيرورتهم جماعة واحدة ومن الافكار والمشاعر مالا يتولد أو يتحول فيخرج من عالم القوة الى عالم الفعل الا عند الفرد فى الجماعة فالجماعة ذات عارضة (مؤقتة) متألفة من عناصر مختلفة اتصل بعضها ببعض الى اجل كخليات الجسم الحى التى ولدت باتصالها ذاتاً أخرى لها صفات غير صفات كل خلية منها ورغماً عما ذهب اليه هربرت سبنسر ذلك العالم الحكيم المدقق مما ندهش له نقول انه لا يوجد بين العناصر التى تتكون منها الجماعة حد وسط وانما الذى يوجد هو مزيج وتولد صفات جديدة كما يحدث ذلك فى الجواهر الكيماوية ألا ترى أنك اذا جمعت جوهرين مثل القواعد والاحماض تولد عن اجتماعهما جسم جديد ذو خواص تخالف تماماً خواص كل واحد من الجوهرين

لذلك كان من السهل معرفة الفرق بين الفرد فى الجماعة وبين الفرد وحيداً غير أنه يصعب الوقوف على السبب فى ذلك

ولكى يقربنا البحث من معرفة هذه الاسباب على وجه ماينبغى أن لا نغفل عن القاعدة الآتية التى شاهدها علماء النفس فى العصر الحاضر وهى ان للحوادث اللاشعورية فى حركة الادراك الشأن الاول كما انها كذلك فى الحياة الجسمانية وان حياة النفس الشاعرة ليست الا شيئاً يسيراً بجانب حياتها اللاشعورية حتى ان أدق الباحثين تأملا وابعد المحققين نظراً لا يسعه أن يقف الا على قليل من البواعث اللاشعورية التى تدفعه الى الحركة بل ان حركاتنا المقصودة لنا أو الشعورية مسببة عن مجموع أسباب لاشعورى متولد على الأخص من تأثير الوراثة فينا وهذا المجموع يشتمل على بقايا الآباء والجدود التى لا يحصيها العد ومنها تتألف روح الشعب أو الامة التى نحن منها فوراء أسباب أعمالنا التى نقصدها أسباب خفية لا ارادة لنا فيها ووراء هذه أسباب كثيرة أخر أشد خفاء وأكثر غموضاً بدليل اننا لا نفقه شيئاً منها وجل أفعالنا اليومية صادر عن أسباب خفية

تفوتنا معرفتها

يتشابه أفراد الشعب بالعناصر اللاشعورية التى تكوّن روحه العامة وهم انما يفترقون بالخواص الشعورية التى هى نتيجة التربية وبالأخص نتيجة وراثة استثنائية وأشد الناس افتراقا من حيث مداركهم يتشابهون بالوجدانات والشهوات والمشاعر وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة فى الامور التى مرجعها الشعور كالدين والسياسة والآداب والميل والنفور وهكذا الا نادراً فقد يكون بين الرياضى الكبير وبين صانع حذائه بعد ما بين السماء والارض من حيث العقل والذكاء ولكن الفرق بينهما فى الطباع معدوم فى الغالب أو هو ضعيف للغاية

هذه الصفات العامة فى الطباع المحكومة باللاشعورية الموجودة فى جميع أفراد كل أمة بدرجة واحدة تقريباً هى التى لها المقام الاول فى حركة الجماعات فتختفى مقدرة الافراد العقلية فى روح الجماعة وتنزوى بذلك شخصيتهم وبعبارة أخرى تبتلع الخواص المتشابهة تلك الخواص المتغايرة وتسود الصفات اللاشعورية

ولكون الجماعات انما تعمل متأثرة بتلك الصفات الاعتيادية يتبين لنا السر فى عدم قدرتها أبداً على الاتيان بأعمال تقتضى فكراً عالياً وعقلا رجيحاً حتى انك لا تجد فرقا كبيراً فيما يقرره جمع من نخبة الرجال ذوى الكفاآت المختلفة وما يقرره جمع كله من البلداء فى موضوع المنفعة العامة لانهم لا يمكنهم أن يشتركوا فى هذا العمل الا بالصفات العادية التى هى لكل الناس فالذى يغلب فى الجماعات انما هى البلاهة لا الفطنة وما كل الناس بأعقل من (فولتير) كما يقولون غالباً بل الواقع ان فولتير أعقل من كل الناس اذا أردنا بكل الناس الجماعات

لكن لو كان كل فرد فى الجماعات لا يأتى لها الا بما اشترك فيه من الصفات مع غيره لكانت النتيجة حداً وسطا فقط وما تولدت خصال جديدة كما قدمنا فمن أين اذن تأتى تلك الخصال . هذا الذى نبحث فيه الآن

الاسباب التى تولد هذه الصفات الخاصة فى الجماعات دون الافراد كثيرة الاول أن الفرد يكتسب من وجوده وسط الجمع قوة كبيرة تشجعه على

الاسترسال فى أمياله مما كان يحكم عنه منفرداً بالضرورة ثم هو لا يكبح جماح نفسه لأن الجماعة لا تسأل عن أفعالها لشيوعها بين جميع الافراد فلا يشعر الواحد منهم بما قد يجره العمل عليه من التبعة وهذا الشعور هو الزاجر للنفوس عما لا ينبغى

السبب الثانى من الاسباب التى تولد فى الجماعات صفات جديدة وتوحد وجهتها هو العدوى والعدوى من الظواهر التى يسهل بيانها ولكنها ليست مما يتيسر تعليله وهى من فصيلة الحوادث المغناطيسية التى سيأتى الكلام عليها وكل شعور فى الجماعة وكل عمل يصدر عنها فهو معد الى حد أن الفرد يضحى مصلحته الذاتية لمصلحة الجماعة وهذه قابلية مخالفة جداً لطبيعة الانسان فهو لا يقدر عليها خارج الجماعة الا نادراً

السبب الثالث وهو أهمها مما يولد فى أفراد الجماعة صفات خاصة مباينة تمام المباينة لصفات كل واحد منهم على انفراده هو قابلية التأثر التى هى أصل فى العدوى السابق الكلام عليها ولسهولة ادراك هذه الظاهرة يلزمنا أن نذكر هنا بعض اكتشافات جديدة دل عليها علم وظائف الاعضاء منها أنه أصبح من الواضح امكان وضع الشخص بطرق شتى فى حالة يفقد فيها ذاته الشاعرة تماماً فينقاد الى جميع ما يشير به عليه ذلك الذى أذهبها عنه ويرتكب أشد الافعال مباينة لخلقه وعادته وقد دل النظر الدقيق فى أحوال الجماعات ان الفرد متى أمضى زمناً بين جماعة تعمل لا يلبث أن يصير فى حالة خاصة تقرب كثيراً من حالة الشخص النائم نوماً مغناطيسياً بين يدى المنوم وذلك بتأثير السيالات التى تصل اليه من الجماعة او بأسباب أخر مما لم نقف عليه بعد وحالة الشخص النائم هى تعطيل وظيفة المخ وصيرورته هو مسخراً لحركات مجموعه العصبى اللاشعورية التى يسيرها المنوم كيف يشاء هنالك تنطفىء الذات الشاعرة تماماً وتفقد الارادة ويغيب التمييز وتتجه جميع المشاعر والافكار نحو الغرض الذى رسمه المنوم

تلك أيضاً على التقريب حال الفرد فى الجماعة فانه فيها لا يبقى ذا شعور بافعاله

وبينما هو يعدم بعض ملكاته تشتد فيه قوة البعض الأخر اشتداداً كبيراً كما هو الحال بالنسبة للشخص النائم فتراه عند الاشارة يندفع الى الفعل المشار اليه اندفاعا لا قبل له بمقاومته وهذا الاندفاع هو عند الفرد من الجماعة أشد بكثير منه عند الشخص النائم لان التأثر حاصل للجميع فيشتد بالتفاعل بينهم والذين قويت شخصيتهم فاستعصوا على الانفعال وسط الجماعة قليلون ولاطاقة لهم بمصادمة تيار الجميع بل الذى يقدرون عليه هو تحويل الاندفاع الى غرض أخر كما وقع أحياناً من أن لفظا سعيداً أو خيالا يمثل فى الوقت المناسب أمام الجماعة يصدها عن ارتكاب افظع الاعمال

والخلاصة أن انكماش الذات الشاعرة وتلاشى الذات اللاشاعرة واتجاه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد والاهبة الى الانتقال فوراً من الافكار التى أشير بها الى الفعل هى الاخلاق الخاصة التى يتخلق بها الفرد فى الجماعة فهو لم يعد هو بل صار آلة لا تحكمها ارادته

ومن أجل ذلك يهبط المرء بمجرد انضمامه الى الجماعة عدة درجات من سلم المدنية ولعله فى نفسه كان رجلا مثقف العقل مهذب الاخلاق ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته وفيه منه سهولة التأثر بالالفاظ والصور مما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة ثم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البديهية ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه وبالجملة فان الانسان فى الجماعة أشبه بحبة من رمال تثيرها الريح ما هبت

ذلك هو السر فى أن جماعة المحلفين تصدر قرارات يردها كل من أفرادها اذا عرضت عليه وحده وفى أن المجالس النيابية تسن من القوانين وتقرر من الاعمال ما يرفضه كل عضو من أعضائها بمفرده . كل واحد من رجال الثورة (كونفانسيون) الفرنساوية كان فرداً متنوراً ذا طباع سليمة فلما صاروا جماعة لم يحجموا عن تقرير أفظع الاعمال حتى اسلموا للاعدام اظهر الناس براءة من

الآثام ثم خالفوا منافعهم فتنازلوا عن حق احترام الناس فى ذواتهم وحصد بذلك بعضهم بعضاً

ليس هذا هو كل ما يفترق به الفرد فى الجماعة عن نفسه منفرداً افتراقا كلياً بل انه قبل أن يفقد استقلاله الذاتى تتغير أفكاره ومشاعره تغيراً كلياً فيصير البخيل مسرفا والمتردد سريع الاعتقاد والتقى شريراً والجبان شجاعا هكذا قرر الشرفاء لما تحمسوا ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهيرة التنازل عن امتيازاتهم ومن المحقق انه لو طلب ذلك من كل واحد منهم على انفراده لرفضه رفضاً باتاً

نستنتج مما تقدم أن الجماعة دائماً دون الفرد ادراكا ولكنها من جهة المشاعر والاعمال الناتجة عنها قد تكون خيراً منه أو اردأ على حسب الاحوال والامر فى ذلك راجع الى الكيفية التى تستفز بها وهذا هو الذى اهمله الكتاب الذين قصروا بحثهم فى الجماعات على جهة الشر منها فاذا صح أن الجماعة شريرة فى كثير من الاوقات فمن الصحيح أيضاً أنها شجاعة فى أوقات كثيرة أخر تلك حال الجماعات التى يستفزها قوادها الى التقاتل فى نصرة الدين أو تأييد المذهب أو يستحثونها للعمل فى سبيل المجد والفخار فيقودونها بلا تعب وبغير سلاح لتخليص حزب الله من يد الكافرين كما فى حروب الصليبيين أو للذود عن حومة الوطن كما وقع فى سنة ١٧٩٣ نعم ذلك الشجاع لا يقر بشجاعته ولكنها هى مادة التاريخ فأنا لو اقتصرنا على تعداد الاعمال العظيمة التى فعلتها الامم وهى هادئة مطمئنة ما وجدنا من ذلك الا يسيراً

الفصل الثانى

مشاعر الجماعات واخلاقها

(١) قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب ـ الجماعة العوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة ـ البواعث التى تدفع الجماعة الى الفعل قوية جداً تنمحى أمامها المنفعة الخاصة ـ لا شىء من افعال الجماعة يصدر عن قصد وروية ـ تأثير الاخلاق القومية فى الجماعة

(٢) قابلية الجماعة للتأثر وللتصديق ـ طاعة الجماعة للمؤثرات فى انها تأخذ الخيالات التى تمثل لها حقائق ثابتة ـ علة اجماع افراد الجماعة على النظر الى تلك الخيالات بكيفية واحدة فى التساوى بين العالم والبليد فى الجماعة ـ بعض أمثلة للخيالات التى يتأثر بها افراد الجماعة كلهم ـ فى استحالة الاعتقاد بصحة قول الجماعة ـ فى اذا اتفاق العدد العديد من الشهادات من ارداً الادلة على اثبات أمر معين ـ ضعف قيمة الكتب التاريخية

(٣) فى غلو مشاعر الجماعة وبساطتها — الجماعة لا تعرف الشك ولا التردد وتذهب دائماً الى التطرف ـ فى أن مشاعر الجماعة زائدة على الحد دائماً

(٤) فى ان الجماعة قليلة المسالمة ميالة الى التسلط والأمرة والمحافظة على القديم ـ فى علة تلك الصفات ـ فى خنوع الجماعة امام السلطة القوية ـ فى ان نزوع الجماعة الى الثورة وقتاً من الاوقات لا يمنع من كونها محافظة للغاية ـ فى ان مشاعر الجماعة تضاد التقلبات والترقى

(٥) فى اخلاق الجماعة ـ قد تكون اخلاق الجماعة احط كثيراً من أخلاق افرادها وقد تكون أرقى منها كثيراً تبعاً للمؤثرات التى تتأثر بها ـ علة ذلك

وامثلته ـ قلما تكون المنفعة باعث العمل عند الجماعة مع انها هى الداعى الوحيد للفرد فى عمله ـ شأن الجماعة فى تهذيب الاخلاق

—

بعد أن اجملنا القول فى اهم خواص الجماعات ينبغى أن نأتى عليها بالتفصيل كثير من الصفات الخاصة بالجماعة كقابلية الاندفاع والغضب وعدم القدرة على التعقل وفقدان الادراك وملكة النقد والتطرف فى المشاعر وغير ذلك يشاهد ايضاً فى الافراد الذين لم يكمل تكوينهم كالمرأة والمتوحش والطفل ولكنى لا اذكر هذه المشابهة الا عرضاً اذ الدليل عليها يخرج عن دائرة هذا الكتاب على أن ذلك غير محتاج اليه لدى من عرف احوال النفس عند الاقوام الذين لا يزالون على فطرتهم الاولى ثم هو لا يقنع من لا المام له بتلك الاحوال اقناعاً تاماً

ولنشرع فى شرح كل صفة من الصفات التى توجد فى أغلب الجماعات

١

قابلية الجماعة للاندفاع والتقلب والغضب

—

قدمنا عند الكلام فى صفات الجماعة الأولية انها منقادة عادة الى العمل من دون أن تشعر بالدافع اليه فتأثير المجموع العصبى فى أفعالها أكبر جداً من تأثير المخ وهى بذلك تشبه كثيراً الرجل الفطرى وقد تكون الافعال التى تصدر عنها كاملة من حيث التنفيذ الا ان العقل لم يكن رائدها فيها بل ان الفرد فى الجماعة يعمل طوعا للمؤثرات التى تدفعه الى الفعل فالجماعة ألعوبة فى يد المهيجات الخارجية وهى تمثل تقلباتها المستمرة وحينئذ هى مسخرة للمؤثرات التى تقع عليها نعم قد يقع الرجل منفرداً تحت تلك المؤثرات عينها لكن عقله يرشده الى مضارها فلا ينقاد لحكمها وذلك ماقد يعبر عنه علماء وظائف الاعضاء بأن فى الرجل وحده

قدرة يتمكن بها من ضبط أعصابه دون الجماعة اذ ليس لها شيء من ذلك

تتبع الدوافع المختلفة التى تبعث الجماعة الى الفعل طبيعة المؤثرات التى ترجع اليها فتكون رحيمة أو قاسية عليها مسحة الاقدام أو الخمول لكنها تكون على الدوام شديدة فلا تثنيها المنافع الذاتية حتى منفعة حفظ الذات نفسها

ولما كانت أنواع المؤثرات فى الجماعة مختلفة جداً وكانت الجماعة تخضع لها دائما لزم أن تكون الجماعة متقلبة كذلك وهذا هو السبب فى انها تنتقل فجأة من أفظع الاعمال الى أكبرها رحمة وكرماً فما أسهل ماتصير الجماعة جلادة ولكن ما أيسر ماتكون ضحية أيضاً وما سالت الدماء التى اقتضاها تأييد كل عقيدة فى الوجود الا من بطون الجماعات ولسنا فى حاجة الى أن نذهب بعيداً فى التاريخ لنعلم ماتقدر عليه الجماعات فى هذه السبيل فما ساومت على حياتها فى ثورة ومنذ أعوام قليلة ذاعت شهرة أحد القواد فجأة فى الناس ولو انه أراد لوجد مائة ألف نفس مستعدة لملاقاة الموت انتصاراً له (١)

وعلى ذلك لايوجد من أفعال الجماعة ماهو صادر عن قصد وروية فهى تنتقل من شعور الى شعور وهى على الدوام خاضعة لتأثير الشعور المستحوذ عليها وقت الفعل مثلها فى ذلك مثل أوراق الشجر تحملها العاصفة وتبددها شذر مذر ثم تسكن فتهبط وسنأتى بأمثلة على تقلبات الجماعة عند الكلام على بعض الجماعات الثورية

وشدة تقلب الجماعة تجعل قيادها صعباً على من يزاوله خصوصاً اذا وقع فى يدها قسط من السلطة العامة ولولا ان مقتضيات الحياة اليومية تفعل فى

(١) يشير المؤلف الى الجنرال بولنجيه أحد رؤساء الجنود الفرنساوية فى العقد التاسع من القرن الماضى حيث أصبح كالنار على علم شهرة وقولا والتفت حوله القلوب التفافاً دعاه الى الهرب من جميع الاحتفالات العمومية خيفة الهرج والافتتان به ولولا انه عاجلته المنية لجدد زمان نابليون وأتى الفرنساويون تحت امرته مالم يكن فى الحسبان

الامور كمنظم خفى لتعسر جداً البقاء على الدمقراطية (الحكومات النيابية) الا انه بقدر ماتتطرف الجماعة فى ارادة الشيء تسرع بالعدول عن تلك الارادة فانها لا قدرة لها على الارادة المستمرة كما انها لاتقدر على اطالة النظر والتفكير

ليست قابلية الاندفاع والتقلب كل ماتمتاز به الجماعة بل هى مع ذلك كالهمجى لاتطيق وجود حائل بينها وما تريد والذى يساعدها على أن لاتعقل الحيلولة ان الكثرة تحدث فيها شعوراً بقوة لاحد لها فتصور المستحيل بعيد عن الفرد فى الجماعة . يشعر الرجل منفرداً بعجزه عن احراق قصر أو سلب حانوت فان دفعه دافع قاوم وامتنع فاذا دخل الجماعة أحس بقوة لم تكن له من قبل وتشجع بكثرة العدد وكفى أن يشار اليه بقتل أو سلب لينساب انسياباً لايثنيه عنه شيء فان كان فى طريقه عقبة اقتحمها بعنف وشدة ولو احتمل تركيب الانسان دوام الغضب لقلنا ان الحالة الطبيعية للجماعة التى خولقت فى بقصدها هى الغضب الدائم

وليلاحظ أن خصال الشعب الاساسية منضمة دائماً الى صفات الجماعات الخاصة من قابلية الغضب والاندفاع والتقلب وجميع المشاعر القومية التى سنأتى عليها فالأولى هى الاساس الذى ترتكز عليه الثانية ولبيان ذلك نقول ان كل جماعة قابلة للغضب والاندفاع لكنها تتفاوت فى ذلك كثيراً فالفرق جلىّ بين جماعة لاتينية وجماعة انكليزية مكسونية واقرب الحوادث فى تاريخنا يوضح ذلك بأجلى بيان فقد كفى منذ خمس وعشرين حجة تلاوة نبأ برق عن اهانة فرض وقوعها لسفيرنا حتى هاجت الأمة وثارت ثائرتها وتولد من ذلك لساعته حرب ماكان أشد هولها وبعد ذلك ببضع سنين ورد نبأ آخر بانكسار تافه لجيوشنا فى (لانجسون) فقامت القيامة وسقطت الحكومة فى الحال وفى ذلك الزمن عينه انكسرت الحملة الانكليزية أمام الخرطوم انكساراً أكبر من هذا بكثير فلم يتزعج له الرأى العام الانكليزى الا قليلا ولم تتزحزح من أجل ذلك وزارة عن مركزها . كل الجماعات فى كل الأمم كالنساء وأشدها شبها بهن الجماعات اللاتينية فمن اعتمد عليها جاز ان يرقى الى الذرى فى وقت قصير لكنه يكون على

الدوام مماساً لصخرة زبيان[1] وموقناً انه سيتدهور يوماً من الايام

٢

قابلية الجماعة للتأثر والتصديق

قلنا فى تعريف الجماعات أن من أخص صفاتها قابليتها الشديدة للتأثر وبينا كيف ان التأثر ممد فى كل مجتمع انسانى وفى ذلك ايضاح لسرعة توجه المشاعر كلها نحو غرض محدود

وكيفما ظهرت على الجماعة شارات الهدو والسكون فانها على الدوام فى حالة انتظار واستعداد يجعل التأثير فيها سهلا فأول مؤثر يبدو تراه يخضعها لحينه بامتداد عدواه الى رؤوس الكل وفى الحال يحصل اتجاه الجميع نحو الغرض المقصود وسواء كان ذلك الغرض احراق قصر أو اتيان عمل كريم فانها تندفع نحوه بسهولة واحدة والأمر انما يتوقف على طبيعة المحرك لا على مايرجحه العقل من وجوب امضاء الفعل أو الاحجام عنه كما فى الافراد

ولما كانت الجماعة على الدوام محلقة فى حدود اللاشعور تتأثر بالسهولة من جميع المؤثرات وذات احساس قوى كاحساس الاشخاص الذين لا تمكنهم الاستعانة بالعقل ومجردة من ملكة النقد والتمييز كان من شأنها أن تكون سريعة التصديق سهلة الاعتقاد فهى لا تعرف الغير المعقول فليذكر ذلك القراء ليفقهوا السر فى سرعة انتشار الاقاصيص التى تخرج عن حد المعقول (٢)

ثم أن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد فى اختراع الاقاصيص

(١) هى صخرة عالية كان يرمى ببعض الجناة من حالقها

(٢) الذين شهدوا حصار مدينة باريس يعرفون أمثلة كثيرة من سرعة تصديق الجماعات بما لا يتصوره العقل من ذلك أنهم كانوا يرون فى مصباح أوقد فى نافذة احدى المنازل اشارة معطاة للعدو مع ان أقل التفات كان يكفى للاقتناع باستحالة رؤية العدو لضؤ ذلك المصباح وهو بعيد عنه بعدة أميال

التى تنشر بسرعة بين الناس بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذى يعتور الحوادث فى مخيلة المجتمعين اذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها فى خيال الجماعة بلا ابطاء لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات وكل تخيل يجر الى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة وانا لندرك هذه الحال اذا ذكرنا ما قد يتوارد علينا من الأفكار الغريبة لمجرد تخيلنا واقعة من الوقائع والفرق بيننا وبين الجماعة أن العقل يرشدنا الى ما بين هذه التخيلات وبعضها من التنافر والتباين وانه ليس فى قدرتها أن تصل الى مثل هذا التمييز وان كل ما احدثه خيالها من التشويش يضيفه الى أصل الحادثة فهى لا تفرق بين الشىء وما يرمى اليه بل هى تقبل جميع الخيالات التى تعرض لها ولا نسبة فى الغالب بين تلك الخيالات وما وقع تحت الحس أولا

ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التى تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الافراد الذين تتكون هى منهم مختلفة متباينة بالضرورة لكن المشاهد غير ذلك والتشويش واحد عند الكل بعامل العدوى لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة التى تنتشر منها العدوى الى البقية فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولا (١) فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسما مرئياً

هكذا وقعت جميع التخيلات الاجماعية الكثيرة التى رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس

ولا ينبغى فى رد ماتقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لأنه لاتأثير لتلك الصفة فى موضوعنا اذ العالم والجاهل سواء فى عدم القدرة على النظر والتمييز مادامو فى الجماعة ورب معترض يقول

---

(١) والواقعة مجرد خيال لكنها جرت مجرى الحقيقة لاجماع الصليبيين عليها

ان تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك الا ان بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية ولا يكفى لهذا العمل عدة مجلدات غير انى لا أريد أن أترك القارىء أمام قضايا لا دليل عليها ولذلك سآتى ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين ألوف الحوادث التى يمكن سردها

وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة فى موضوعنا لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت الى صفوفها من الافراد صنوفا وأنواعاً ما بين جاهل غبى وعالم ألمعى رواها عرضاً ربان السفينة جوليان فيليكس فى كتابه الذى ألفه فى مجارى مياه البحر وسبق نشرها فى (المجلة العلمية) قال

كانت المدرعة (لابيل بول) تبحث فى البحر على الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انفصلت عنها بعاصفة شديدة وكان النهار والشمس صافية وبينما هى سائرة اذا بالرائد يشير الى زورق يساوره الغرق فشخص رجال السفينة الى الجهة التى أشير اليها ورأوا جميعاً من عساكر وضباط جليا زورقا مشحونا بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة وكل ذلك كان خيالا فقد أنفذ الربان زورقا صار ينهب البحر انجاداً للبائسين فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم وسمعوا ضجيجاً مبهما يخرج من أفواه عدة حتى اذا وصلوا المرئى وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطىء القريب واذ تجلت الحقيقة غاب الخيال

هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذى يتولد فى الجماعة بحال لا تحتمل الشك ولا الابهام كما قررناه من قبل فهنا جماعة فى حالة الانتظار والاستعداد وهناك رائد يشير الى وجود مركب خفها الخطر وسط الماء مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من فى الباخرة عساكر وضباطاً

ليس من الضرورى أن تتألف الجماعة من عدد كبير حتى تنعدم فيها حاسة ابصار الاشياء على حقيقتها وتبدل الحقائق بخيالات لا ارتباط بينها وبينها بل متى اجتمع بعض افراد تألفت منهم جماعة لها ما لكل الجماعات من الصفات وان

كانوا من اكابر العلماء ولبست هذه الصفات كل واحد منهم فيما هو بعيد عن اختصاصه العلمي وفي الحال تنزوى ملكة التمييز وتنطفىء روح النقد في كل واحد منهم ومن الامثلة الغريبة على ذلك ما رواه لنا موسيو (دافى) وهو أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (اعصر العلوم النفسية) ويحسن بنا ايراده . دعا اليه موسيو (دافى) عدداً من كبار أهل النظر وفيهم عالم من أشهر علماء انكلتره هو المستر (ولاس) وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا ثم أجرى امامهم جميع ظواهر فن استخدام الارواح من تجسيم الارواح والكتابة على (الأردواز) وهكذا وكتبوا له شهادات قالوا فيها ان المشاهدات التي وقعت أمامهم لاتنال الا بقوة فوق قوة البشر فلما صارت الشهادات في يده أعرب لهم ان ماكان انما هو شعوذة ما ابسطها قال راوى الحادثة : والذى يوجب الدهش والاستغراب في بحث موسيو (دافى) ليس ابداعه ومهارته في الحركات التي قام بها بل ضعف الشهادات التي كتبها اولئك الشهود الذين كانوا يجهلونها وان الشهود قد يذكرون روايات كثيرة واقعية كلها خطاء وانه لو صح وصفهم الحوادث التي رووها لتعذر تفسيرها بالشعوذة على أن الطريقة التي استنبطها موسيو (دافى) بسيطة يندهش الانسان لبساطتها من جراءته على استعمالها ولقد كان له من التأثير في أفكار جماعته ما جعلها ترى ما لم تكن ترى

ذلك هو تأثير النوم في النوم دائماً واذا تبين ان هذا التأثر جائز في عقول سامية بعد أن أنذرت فكم يكون من السهل التأثير في عقول الجماعة العادية

والأمثلة التي من هذا القبيل لاتحصى . أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق ابنتين صغيرتين وانتشالهما من نهر (الدين)

عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة اكيدة واتفقت أقوالهم اتفاقاً لم يبق معه شك في ذهن قاضي التحقيق فرخص بدفنهما وبينما الناس يتهيأون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما اولئك الشهود بالاجماع وبان انهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين الفقيدتين الا شبه بعيد جداً والذى وقع هنا هو بذاته

ماوقع فى الامثلة التى سردناها . تخيل الشاهد الأول ان الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك وأكده فسرت عدوى التأثير الى البقية

وأول مراتب التأثير فى هذه الحوادث وأمثالها هو على الدوام مايتولد من الخيال عند أحدهم بسبب حضور بعض المشابهات المبهمة فى ذاكرته ثم يتدرج من ذلك الى القول بما تخيل فتنشأ عدوى التأثر بذلك الخيال الاول فاذا كان أول من يقع الحادث تحت حواسه سريع التأثر يكفى أن يكون فى الجثة التى تعرض عليه علامة أو أثر خاص كالذى قد يكون فى الجسم الذى سبقت له معرفته ليتخيل انها هى ولو لم يكن بينهما أدنى شبه حقيقى فى الخلقة اذ ذاك يصير الخيال الأول أشبه بنواة ذات تبلور تحتل ساحة الادراك وتعطل ملكة التمييز تماماً . وحينئذ لايرى الانسان الشيء الذى أمامه نفسه بل الصورة التى خيلت اليه . ومن هنا نفهم السر فى خطأ الأمهات التى يخيل اليهن انهن يعرفن جثث أولادهن كما وقع فى الحادثة الآتية وهى وان تكن قديمة العهد لكن الجرائد ذكرتها أخيراً ومنها يدرك القارىء درجة التأثر الذى بينا كيفيته .

عرف غلام جثة غلام وكان مخطئاً وترتب على ذلك ان أشخاصاً كثيرين عرفوا الجثة كما عرفها الاول . وحدث على أثر هذه المعرفة المتكررة أمر من الغرابة بمكان اذ جاءت امرأة فى اليوم الثاني وهى تصيح : ربى انه ولدى . فلما دخلت عليه أخذت تقلب ثيابه فرأت جرحا فى الجبهة فقالت نعم هذا ولدى فقدته منذ شهر يوليه الماضى ولقد سرقوه منى ثم قتلوه . وكانت هذه المرأة حارسة باب أحد المنازل واسمها (شافاندريت) ثم جيء بزوج اختها فما وقع نظره على الجثة الا وقال هذا فيليبير . كذلك عرفه كثيرون من سكان حارته كما عرفه معلم المدرسة اذ رأى فى عنقه تميمة من الذهب كانت لديه حجة دامغة على انه هو ابن تلك السيدة . أجل كل أولئك الناس كانوا مخطئين وبان بعد ستة اسابيع ان الجثة جثة ولد من اهل مدينة (بوردو) قتل هناك وحملته شركة النقل الى باريس [1]

[1] اقرأ جريدة (اكلير) — ٢١ ابريل سنة ١٨٩٥

والذى تجب ملاحظته هو أن هذه المعرفة تقع غالباً من النساء أو الصبيان أعنى من الاشخاص شديدى التأثر اكثر من غيرهم . وذلك يدلنا على مقدار قيمة مثل هذه الشهادات أمام القضاء . فالواجب أن لا يلتفت الى قول الصبى بحال من الاحوال . يقول القضاة مجمعين ان الانسان فى هذا السن لا يكذب . ولو أنهم ارتقوا فى معرفة أحوال النفس درجة لعلموا أنه فيه يكذب على الدوام . نعم انهم غير آثمين فيما يكذبون ولكنهم على كل حال يكذبون والا لكان الأولى أن تبنى العقوبات على أحد وجهى الدينار (طره ولا ياز) من أن تبنى على شهادة صبى

ولنرجع الى مشاهدات الجماعة فنقول أنها اكثر الشاهدات خطأ وأنها فى الغالب عبارة عن خيال فرد واحد سرت عدواه الى الجميع . وقد لا تفرغ من سرد الامثلة التى توجب علينا الحذر والحيطة فى الاخذ بشهادة الجماعة . فقد حضر ألوف من الناس منذ خمس وعشرين سنة حملة الفرسان فى واقعة (واترلو) ومع ذلك يستحيل معرفة القائد الحقيقى لهذه الحملة نظراً لتناقض أقوال من شهدوها . واثبت الجنرال (ولسلى) الانكليزى فى كتاب نشره أخيراً أن الرواة أخطأوا خطأ فاحشاً حتى الآن فى سرد أهم الوقائع فى حرب (سدام) وهى التى أجمع المئات من الناس على صحتها (١)

---

(١) انى أشك كثيراً فى أننا نعرف حقيقة سير حرب واحدة والذى نعرفه انما هو الغالب والمغلوب وأظن أنا لا نعرف غير ذلك والذى رواه الدوق (داركور) عن حرب (سولفيرينو) يصدق على جمع الحرب قال : يكتب القواد تقاريرهم بناء على قول المئات من العساكر فيتناولها الضباط المكلفون بتبليغ الأوامر ويعدلون فيها ويحررون النسخة النهائية فيخالفهم رئيس أركان الحرب ويعيد تحريرها من جديد على حسب معلوماته ثم يعرضونها على القائد العام فيصيح بل أنتم مخطئون ويحل محلها غيرها فلا يبقى من الاصل الا يسير وانما حكى موسيو داركور هذه الحكاية ليبرهن على أن الوصول الى معرفة حقيقة اشهر الحوادث

هذه الحوادث تدلنا على قيمة شهادة الجماعات . نعم ان كتب المنطق تعد اجماع العدد الكثير على الشهادة من أقطع الأدلة التى يمكن اقامتها لأثبات أمر من الأمور ولكن الذى نعرفه من علم أحوال النفس يرشدنا الى انه يجب أن تؤلف كتب المنطق فى هذا الموضوع من جديد فالشك كل الشك فى الوقائع التى رواها الجم الغفير والقول بأن الأمر شوهد فى الزمن الواحد من الوف من الشهود هو فى الغالب قول بأن الواقع يخالف كثيراً ما اتفق أولئك الشهود عليه

نتج من هذا أنه ينبغى النظر الى كتب التاريخ كأنها كتب أملاها الخيال لاحتوائها على روايات وهمية لحوادث اصطحب بالشك وقوعها تحت الحواس وأردفت بشروح متأخرة عنها وعليه فأن عمل أى عمل كيفما كان رذيلاً أولى من قتل الوقت فى وضع مثل تلك التآليف

ومن سوء الحظ أنه لا ثبات للأقاصيص وأن سجلت فى بطون كتب التاريخ لأن خيال الجماعات لا ينفك يغيرها ويحرفها مدى الزمن بدليل ما نعرفه الآن من الفرق العظيم بين يهوذا ذلك الوحش الكاسر الذى جاء ذكره فى الانجيل ويهوذا آله الحب الذى ذكره القديس « تيريز » . وبدليل أن « بوذا » الذى تعبده الصين لم يبق بينه وبين « بوذا » المعبود فى اليابان وجه شبه ما

بل أنه لا يلزم أن تتعاقب الاجيال لتتغير صور عظماء الرجال فى خيال الجماعات فأن هذا الانقلاب قد يحصل فى بضع سنين . انا نشاهد نحن قصة أعظم رجال التاريخ تقلبت عدة مرات فى أقل من خمسين عاما . ففى عهد آل « بوربون » كان نابليون رجلا يحب الانسانية حر الافكار صديقاً للضعفاء ولو صدق الشعراء لبقى ذكره فى اكواخهم « الفقراء » زمناً مديداً . وبعد ثلاثين سنة صار البطل الكريم مستبداً سفاكا استتاب الحكم والحرية وأهلك ثلاثة آلاف الف من النفوس فى سبيل اطماعه . واليوم نحن نشهد صورة جديدة لنابليون فاذا انقضى عليه بضع عشرات من القرون داخل الريب علماء ذلك الزمان أمام

= حتى التى ضبطت لساعتها يكاد يكون مستحيلا

هذه الروايات المتناقضة فى وجود هذا البطل كما يشك بعضهم الآن فى وجود بوذا وقد لا يرون فيه الا خرافة أو صورة مكبرة من صورة « هرقل » اليونانى غير أنه سيكون لهم من معرفة روح الاجتماع ما يسرى الحزن عنهم لقاء هذا الشك وخفاء الحقيقة اذ يعلمون أن التاريخ انما يخلد الخرافة والاقاصيص

٣

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها

كيفما كانت مشاعر الجماعة أى سواء كانت طيبة أو رديئة فان لها صفتين . بساطة للغاية . وغلواً للنهاية . ومن هذه الجهة يقل الفرق بين الفرد مجتمعاً والرجل الفطرى كما يحصل ذلك أيضاً فى أحوال أخرى . فهو يفقد ملكة التمييز الدقيق . ويرى الاشياء فى جملتها ولا يعرف ضرورة الانتقال من طور الى آخر . ومما يزيد فى غلو مشاعر الجماعة ان كل احساس يبدو فسرعان ما ينتشر بعامل التأثر والعدوى . واجماع الكل على قبوله يزيد فى قوته زيادة كبيرة

غلو مشاعر الجماعة وبساطتها يجعلانها لا تعرف الشك ولا التردد . فهى كالنساء تذهب فوراً الى الحد الاقصى . فالشبهة متى بدت تنقلب الى بديهى لا يقبل البحث . والرجل منفرد قد لا يقر على أمر أو ينفر منه نفوراً لا يتعدى مجرد الرغبة عنه وأما الرجل فى الجماعة فأنه متى نفر انقلب نفوره حقداً شديداً وتزداد شدة المشاعر غلواً على الاخص فى الجماعة المؤلفة من أفراد غير متشابهين لفقدان تبعة الاعمال من بينهم . فيتولد عندها من المشاعر وتأتى من الاعمال ما يستحيل صدوره عن الفرد الواحد . لتحقق كل من عدم وقوعه فى العقاب . وكلما كان العدد كبيراً قوى فيه هذا الاعتقاد وشعر بقوة حاضرة عظيمة . هنالك ينسى الجبان والجاهل والحسود درجة انحطاطهم وضعفهم ويحل محلها خيال قوة وحشية وقتية لكنها هائلة

ومن نكد الطالع ان غلو مشاعر الجماعات يظهر غالباً فى الشر . وتلك بقية

مما ورث أهل هذا الزمان عن آبائهم الأولين . وهى مشاعر يرد جماحها الرجل المنفرد المسؤول عن عمله مسوقاً بعامل الخوف من العقاب . وهذا هو السبب فى سهولة قيادة الجماعة الى أقبح درجات التطرف

ومع ذلك ليست الجماعات غير قابلة للقيام باكرم الاعمال والاخلاص وأرفع الفضائل اذا حسن التأثير فيها . بل هى أشد قبولا لذلك من الرجل المنفرد . وسنعود الى هذا الموضوع عند الكلام فى أخلاق الجماعات

وكما أن الجماعة تغالى فى مشاعرها فلا يؤثر فيها الا المشاعر المغالى فيها . فالخطيب الذى يريد اجتذاب قلوبها يلزمه الاكثار من التوكيدات الحادة . لان المبالغة والتوكيد والتكرار وعدم التعرض ابداً الى اقامة البرهان على أى قضية كلها وسائل خطابية يعرفها خطباء الاجتماعات العمومية حق معرفتها

تطلب الجماعة من ابطالها الغلو أيضاً فى مشاعرهم فما ينبغى لهم من أجلها أن يفخموا فى القابهم ويعظموا من فضائلهم الصورية . وقد شوهد أن الجماعة تطلب من أبطال الروايات فى مراسح الملاهى شجاعة واخلاقاً وفضائل ليست لأحد فى الوجود الحقيق .

والكثير ينسب هذا الميل لاحوال الملاهى الخاصة التى تولد فى نفوس المتفرجين هذا الشعور . نعم لتنسيق المراسح على نحو مخصوص فن ذو قواعد غير أنها قواعد لا تنطبق غالباً على ما يقتضيه الذوق السليم والاحوال المنطقية . والواقع أن فن الخطابة فى الجماهير ذو درجة منحطة . الا أنه يقتضى صفات مخصوصة وكثيراً ما يحار الانسان عند تلاوة رواية فى معرفة السبب فى نجاحها . حتى أن مديرى الملاهى انفسهم عندما تقدم اليهم تلك الروايات يشكون فى نجاحها لأنهم لا يقدرون على الحكم عليها الا اذا لبثوا توب جماعة متفرجين (١) ولو أنه أتيح لنا التوسع

(١) ومما تقدم ندرك السبب فى أن الرواية الواحدة يرفضها مديرو الملاهى كلهم ثم تسنح فرصة فتشخص فتنال نجاحاً دونه كل نجاح ونجاح رواية موسيو (كوبيه) المسماة من (أجل التاج) معروف ومشهور بعد أن رفضها مديرو الملاهى

فى هـذا البحث لبينا رجحان تأثير الاخلاق القومية فى هذا المقام .لان الرواية التى تخلب العقول فى بلد قد لا يلتفت اليها فى بلاد غيرها الا بقـدر ما تقضى به المجاملة والاصطلاح لانها لاتحرك فى غير بلدها شجون سامعيها وهوشرط نجاحها

لست فى حاجة الى القول بان مغالاة الجماعات تكون على الدوام فى مشاعرها ولا تتعدى الى قوتها العاقلة أبداً . فقد سبق لى بيان انمدارك الرجل فى الجماعة تنحط سريعاً انحطاطاً عظيما ذلك هو ما شاهده أيضاً أحد أفاضل القضاة موسيو (شارد) فى مباحثه عن جرائم الجماعات وعليه فالجماعة انما ترتقى أو تنحط فى دائرة المشاعر

٤

عدم مسالمة الجماعات وميلها الى التسلط والأمرة والمحافظـة على القديم

قلنا ان الجمـاعات لا تعرف من المشاعر الا ماكان متطرفاً بسيطاً وهى لذلك تقبل ما يلقى اليها من الآراء والافكار والمعتقدات بجملتهـا أو ترفضها كذلك فتأخـذها حقائق مطلقة أو ترغب عنها أباطيل مطلقة على أن هذا هو الشأن فى

= الشهيرة كلهامدى عشر سنين مع علو كعب المؤلف ومنزلته الادبية الـكبرى. كذلك رواية لامارين دى شـارلى . أبت الملاهى كلها تشخيصها فاتفق أحد السماسرة المال اللازم لتمثيلها فمثلت مائتى مرة فى فرنسا واكثر من الف مرة فى بلاد الانجليز ولولا ما قدمناه من استحالة نظر مديرى الملاهى فى الروايات نظر جماعة المتفرجين مافهم كيف جاز أن يصدر عنهم مثل تلك الاحكام أو يصدر عنهم مثل ذلك الخطأ الجسيم وهم من كبار الادباء بين أهل الفن ولهم فى تمثيل الروايات منافع كبيرة من شأنها أن تبعدهم عن الوقوع فيما وقعوا فيه . هذا موضوع لايسعنى الاسهاب فيه وهو جدير بأن يشحذ له قلم رجل يجمع بين فن الملاهى والبراعة فى علم النفس مثل موسيو سرمى

المعتقدات التى تتحصل من طريق التلقى لا التى تتصل بالانسان من طريق النظر والتعقل وكل يعرف ما للمعتقدات الدينية من التأثير فى عدم احتمال المخالف ومن السلطان على النفوس

ولما كان باب الشك غير مفتوح امام الجماعة فى كل ما اعتقدت أنه حق أو باطل وكانت تشعر شعوراً تاماً بقوتها كانت امرتها مساوية لعدم احتمالها . يطيق الفرد المناظرة والخلاف . أما الجماعة فلا تطيق ذلك أبداً وأقل خلاف يأتى به الخطيب الذى يتكلم فى المجتمعات العمومية يتلقاه السامعون بأصوات الغضب والسباب الشديد فان أصر فنصيبه الاهانة والطرد بلا امهال ولولا الرهبة من رجال الشرطة الحاضرين لقتلوه أحياناً

عدم الاحتمال والأمرة شائعان فى الجماعات كلها غير انهما يختلفان فى كل واحدة منها وهنا أيضاً يظهر لنا أثر الاخلاق القومية المتسلط على جميع مشاعر الناس وأفكارهم . فاقصى درجات عدم الاحتمال والأمرة توجد فى الجماعات اللاتينية اذ بلغت عندها الى حد انها اماتت فى الفرد روح الاستقلال التى هى أشد اخلاق الانكليزى السكسونى فلا تهتم الجماعات اللاتينية الا باستقلال المجموع الذى هى منه . وأخص مميزات هذا النوع من الاستقلال شدة الميل الى التعجيل باخضاع المخالف فى الرأى لمعتقد الجماعة عنوة وقسراً ذلك هو نوع الحرية الذى عرفه المتطرفون فى كل عصر ولم يكن فى قدرتهم أن يعرفوا سواه

الأمرة وعدم الاحتمال حاستان من الحواس التى تجيد الجماعات معرفتها فهى تدركهما بسهولة وتتلقاهما بسهولة وتعمل على مقتضاهما بسهولة عند الطلب وهى تحترم القوة وتخنع لها ولا تتأثر بالحسنى الا قليلا لانها فى نظرها صورة من صور الضعف ليس الا لذلك لم تمل الى رؤسائها الذين عرفوا بالرفق واللين بل الى الطغاة المستبدين الذين سحقوها . لمثل هؤلاء تقيم الجماعة التماثيل فى كل عصر وأوان واذا تخطت بالاقدام فوق غشوم سقط من عليائه فذلك لانه فقد سلطانه واندرج فى عداد الضعفاء الذين يحقرون لكونهم لا يخشون . فأعز الابطال لدى نفوس

الجماعة من كان شبيهاً بقيصر يخلبهم جلبابه ويرهبهم سلطانه ويخيفهم صولجانه

الجماعة فى استعداد دائم للانتقاض على السلطان اذا ضعف وهى تخفى الرأس أمام الوازع المنيع فان تناوبه الضعف والقوة عاملته بمقتضى مشاعرها المتطرفة وانتقلت من الخنوع الى الفوضى وثابت من الثورة الى الخنوع

ولقد يخطىء فى ادراك حقيقة الاجتماع من يظن ان الروح السائدة على الجماعات دائماً هى الثورة والذى يوجب الشبهة فى ذلك انما هو تعسفها وقسوتها والحقيقة ان انفجار بركان الثورة منها وصدور أعمال التخريب عنها نزعة عرضية تخمد سريعاً لان خضوعها لقوانين الوراثة شديد بقوة تأثير الغرائز الفطرية فهى ميالة كل الميل الى المحافظة على الحال التى هى فيها ومتى تركت وشأنها ملت الفوضى وسارت بفطرتها الى الاستكانة والاستعباد هكذا كان أشد القوم تهليلا وترحيباً بالقائد بونابرت هم أشد رجال الثورة تعطرساً وتطرفاً لما ألجم جميع الحريات وأثقل بيده التى من حديد

ومن الصعب أن نفهم التاريخ لاسيما تاريخ ثورة الامم اذا لم نكن على علم تام بتأصل ميل الجماعات الى المحافظة . تبغى الجماعات استبدال أسماء نظاماتها وقد تثور الثورة العنيفة للوصول الى ذلك التغيير لكن لب هذه النظامات من حاجات الأمة التى تلقتها عن الآباء والاجداد فهى ترجع اليه على الدوام . أما تقلباتها المستمرة فلا تتعلق الا بالمسائل العرضية والحاصل ان عاطفة المحافظة فى الجماعات قوية كما هى عند أهل النشأة الاولى، يبلغ احترامها للتقاليد حد العبادة وتبغض أشد البغض بفطرتها كل جديد من شأنه تغيير أحوال معيشتها الحقيقية ولو ان سلطة الدمقراطية بلغت أيام اختراع الصنائع الميخانيكية واكتشاف البخار والسكك الحديدية مابلغته الآن لاستحال تحقيق هذه المخترعات أو لكان ثمنها كثيراً من الثورات وقتل الالوف من النفوس . فمن حسن حظ الحضارة أن سلطة الجماعات ما بدأت فى الظهور الا بعد أن تم تحقيق الاكتشافات العظيمة العلمية والصناعية

٥

أخلاق الجماعات

اذا أردنا من كلمة الاخلاق دوام الاحتفاظ بما اصطلح العموم على مراعاته وقمع النفس عن الاسترسال مع نزعات حب الذات فليست الجماعة أهلا لشيء من ذلك لشدة نزقها وعدم ثباتها لكن اذا أدخلنا ضمن معنى هذا اللفظ التخلق مؤقتاً ببعض الصفات كاهمال الذات والاخلاص والتنزه عن الغاية وتضحية النفس والميل الى الانصاف جاز لنا أن نقول بأن الجماعات أهل للتجمل بأخلاق عالية

أما السبب الذى حدا بالقليل من علماء النفس الذين بحثوا فى أحوال الجماعات الى الحكم عليها بانحطاط الاخلاق فهو كونهم قصروا بحثهم على جهة الشر فيها فلاحظوا ان أعمالها من هذه الجهة كثيرة .

نعم هذا هو الغالب فى الجماعات وعلته ان العصور الماضية تركت من شرها وخشونتها بقية اطمأنت فى قلب كل واحد منا والفرد لايجرأ على الاسترسال مع هذه البقية حذر الوبال الذى تجره عليه . أما الجماعة فغير مسؤولة عن أعمالها فاذا هو انخرط فيها أمن العقاب ونشط من عقاله فاتبع هواه . ألا ترى انه لما لم يجرأ على الشر مع أمثاله مال به الى الحيوان فواصله بالاذى . فشهوة الايذاء عند الجماعة من طبيعة شهوة الصيد عند المغرمين به فهى تفترس الرجل اذا غضبت فلا تأخذها شفقة ولا يثنيها حنان وهم يجتمعون زمراً زمراً ليشهدوا بقلوب قاسية كلابهم تمزق بأنيابها الوعل الضعيف والكل فى نظر الحكيم وحش مفترس

بقى ان الجماعة كما انها أهل لارتكاب القتل والتدمير بالنار وكل أنواع الجرائم هى أهل للاخلاص فى العمل ولتضحية المنافع الذاتية والنزاهة بدرجة أرقى مما يقدر الفرد بل هى أقرب منه الى تلبية من يناديها باسم الشرف والفخار أو باسم الدين والوطن الى حد المخاطرة بالأرواح وأمثلة الصليبيين ومتطوعى سنة ٩٣ كثيرة يخطئها العد فى التاريخ فالجماعة دون الفرد اهل لعظائم الاعمال فى باب النزاهة

والاخلاص وكم من جماعة تقدمت الى الموت فى سبيل معتقدات وافكار وكلمات كانت تكاد لاتفقه شيئاً من معانيها حتى ان الجماعة التى تقوم بالاعتصاب انما تعتصب لصدور الاشارة بذلك اليها اكثر من ميلها لنيل الزيادة فى الأجر الزهيد الذى اقتنعت به من قبل لأن المصلحة الذاتية قلما تكون سبباً قوياً لحركات الجموع وهى على التقريب السبب الوحيد فى عمل الفرد فليست هى التى ساقت الجم الغفير من الجموع الى الحروب من دون ان يدرك السبب فيها ولا الغرض منها ولا هى التى جعلتهم يتساقطون على عجل بين يدى الموت كالقبرة يسحرها الصياد بمرآته فتدنو اليه

حتى الأوغاد كثيراً ما يكون انضمامهم الى الجماعة علة فى ارتقاء الملكات الفاضلة فى نفوسهم وقتاً ما كما لاحظه (تاين) فى قتلة شهر سبتمبر الذين كانوا يلتقطون كل ما وجدوه من الاموال ونفيس المتاع ويقدمونه للجنة مع أنه كان من السهل عليهم اخفاؤه كذلك الجماعة التى وجهت على قصر (التويلرى) فى ثورة سنة ١٨٤٨ لم يتناول فرد منها شيئاً من تلك النفائس التى بهرتها وقد كان يكفيه قوت عدة أيام مع كونها كانت شديدة الغضب عنيفة الصخب مرذولة الاثر

نعم تهذيب الجماعة للفرد ليس هو القاعدة المطردة ولكنه كثير الوقوع حتى فى أحوال أقل شدة من التى تقدم ذكرها وقد سبق لنا القول بأن جماعة المتفرجين يطلبون من المشخصين أفضل الاخلاق وأرفع الفضائل ومن السذاجة ان نقول بأن الجماعة وان تكونت من افراد منحطى الاخلاق تظهر غالباً بمظهر الكمال هكذا المنغمس فى الموبقات والديون والوغد يزجرون غالباً اذا رأوا منظراً منافياً للآداب أو سمعوا هذراً يعد تافهاً بجانب حديثهم الذى تعودوه فى ندواتهم

٨ ثبت مما تقدم أن الجماعة كما أنها تميل الى الدنايا هى أهل للتحلى بأخلاق عالية واذا صح أن يكون التنزه فى العمل والجلد والاخلاص المطلق لمبدأ وهمى أو صحيح من الفضائل الادبية جاز القول بأن للجماعة فى الغالب من ذلك ما ليس لأعقل الحكماء الا قليلا حقاً هى تزاول تلك الفضائل لا عن قصد ولكن ما ضرنا

من هذا ونحن لا ينبغى لنا أن نشكو كثيراً من الافعال التى تصدر عن الجماعات بمحض غريزتها الاّ النادر لأنها لو تعقلت أحياناً ورجعت الى منافعها القريبة منها ما قام على وجه البسيطة ركن من اركان الحضارة ولا كان للانسانية تاريخ يتلى

الفصل الثالث

افكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

(١) افكار الجماعات — الافكار الاساسية والافكار التبعية — فى اجتماع الافكار المتناقضة — تغير الافكار العالية حتى تصل الجماعات الى ادراكها — أثر الافكار فى الهيئة الاجتماعية بمعزل عما تشتمل عليه من الحقيقة

(٢) تعقل الجماعات ـ عدم قابلية الجماعات للتأثر بالمعقول ـ درجة تعقل الجماعة منحطة دائما ـ لاتشابه ولا تلازم بين الافكار التى تجمع الجماعات بينها الا فى الظاهر

(٣) تخيل الجماعات ـ شدة تخيل الجماعة — انما تتخيل الجماعات بواسطة الصور وهى تتوارد عليها من غير جامعة بينها اصلا ـ انما يشتد تأثر الجماعات من الاشياء بالجهة الخلابة فيها ـ خلابة الاشياء ومافيها من الاقاصيص هما اساس المدنية الحقيقية ـ تخيل الجماعات كان على الدوام قوة رجال السياسة فى الامم — كيف تبدو الحوادث التى لها قوة التأثير فى تخيل الجماعات

١

افكار الجماعات

بحثنا فى كتابنا السابق عن تأثير الافكار فى تطور الامم وبينا ان كل مدنية

تقوم على أفكار أساسية محدودة فلما تتجدد وشرحنا كيف تتمكن تلك الافكار من نفوس الجماعات وكيف انها لاتدخل عليها الا بالصعوبة وما هى القوة التى تكون لها متى احتلتها ثم أوضحنا كيف ان التقلبات السياسية الكبرى تحدث غالباً مما يطرأ على هذه الافكار الاساسية من التغيير وذلك كله بالاسهاب والشرح الوافى وعليه لانعود الى بسط الكلام فى هذا الموضوع مرة أخرى وانما نوجز القول فى الافكار التى هى من مقدور الجماعات والصورة التى تتناولها عليها

تنقسم هذه الافكار الى قسمين الاول الافكار العرضية الوقتية التى تولدها بعض الحوادث لساعتها كولوع بفرد من الافراد أو مذهب من المذاهب والثانى الافكار الاساسية التى تكتسب من البيئة والوراثة والرأى ثباتاً مثال ذلك العقائد الدينية فى الماضى والافكار الدمقراطية والاجتماعية فى الزمن الحالى

فالافكار الاساسية أشبه بالماء الذى يجرى الهوينا فى النهر . والافكار العرضية تشبه الامواج الصغيرة المتغيرة على الدوام التى تضرب وجه ذلك الماء وهى مع قلة أهميتها أظهر أمام العين من سير النهر نفسه

وقد أخذت الآن الافكار الاساسية التى عاش بها آباؤنا فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ففقدت ماكان لها من المتانة والرسوخ وتزعزعت من أجل ذلك النظامات التى كانت تقوم عليها وفى كل يوم تظهر أفكار وقتية كثيرة مما ذكرنا الآن القليل منها هو الذى ينمو وهو الذى يكون له فى المستقبل تأثير كبير

وكيفما كانت الافكار التى تلقى فى نفوس الجماعات فانها لاتسود ولا تتمكن الا اذا وضعت فى شكل قواعد مطلقة بسيطة لتبدو لها فى هيئة صورة تحسنها وهو الشرط اللازم لأن تحل من نفوسها محلا كبيراً وليس بين هذه الافكار المصورة أقل رابطة عقلية من التشابه أو التلازم فيجوز أن يحل بعضها محل بعض كالزجاجات السحرية التى يستخرجها العامل واحدة فواحدة من صندوقها ذلك هو السبب فى قيام الافكار المتناقضة بجانب بعضها عند الجماعات وعلى حسب الاحوال تكون الجماعة تحت تأثير أحد هذه الافكار التى اجتمعت فى

مدركتها فتأتى بأشد الاعمال تناقضاً وتضاربا

هذه حال ليست خاصة بالجماعات وحدها بل هى تشاهد أيضاً فى الافراد لا فرق فى ذلك بين من لايزال على الفطرة ومن أشبههم بناحية من نواحى العقل كالذين غلت ثورة الدين فى رؤوسهم بل انى شاهدت ذلك بدرجة توجب الاستغراب عند بعض مستنيرى الهندستان الذين تربوا فى مدارسنا الأوربية ونالوا جميع شهاداتها فرأيت انه ارتكز على مجموع معتقداتهم الدينية المستديم أو افكارهم الاجتماعية الوراثية مجموع أفكار غريبة لا علاقة بينها وبين الاولى وذلك من دون أن تؤثر فيها وكانت هذه أو تلك تظهر فى الخارج طبقاً لمقتضى الحال بجميع مشخصاتها من أعمال واقوال فيبدو الفرد منهم مناقضاً لنفسه كل التناقض على انه تناقض فى الواقع ظاهر أكثر مما هو حقيقى لان الافكار الموروثة هى التى لها فى الفرد قوة تصدر عنها أفعاله وانما تكون أفعال المرء متناقضة حقيقة اذا تجاذبته قوتان وراثيتان جاءتا من اختلاط المصاهرة بين عنصرين مختلفين ولا أطيل الكلام هنا على هذه المشاهدات وان كانت أهميتها فى علم النفس كبيرة جداً فانى أحسب أنه يجب لادراكها عشر سنين يقضيها الباحث سائحاً بين الامم

ولما كانت الجماعات لا تقبل الافكار الا اذا صارت بسيطة جداً لزم عليه ان هذه الافكار لا تنتشر ولا تصير عمومية الاّ اذا تغيرت فى الغالب تغيراً تاماً واكثر ما يشاهد ذلك فى الافكار الفلسفية أو العلمية الراقية فانه لا بد من تغيير عظيم فيها حتى تهبط من طبقة الى طبقة الى مستوى الجماعات . ويختلف التغيير باختلاف الجماعات أو الامم التى هى منها وهو على كل حال صيرورتها صغيرة بسيطة فاذا نظرنا الى الجهة الاجتماعية نرى ان ليس من الافكار ما هو راق ومنها ما هو وضيع اذ كيفما كان الفكر جليلا راقياً فانه بوصوله الى الجماعات وتأثيره فيها يتجرد عن رقيه وجلاله

على أن منزلة الفكر لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية اذ المعول عليها انما هو

الأثر الذى ينتج عنه الا ترى أن الافكار الدينية فى القرون الوسطى والافكار الديمقراطية فى القرن الماضى والاجتماعية فى زماننا هذا ليست رفيعة بمقدار ما قد يظهر فان الفلسفة لا تعتبرها الا اغاليط صغيرة ومع ذلك فانه لا حد لأثرها فيما مضى وستكون ولا حد له فيما يأتى ستبقى هى العوامل الاساسية فى حياة الدول والممالك زمناً طويلا

ثم ان الفكر وان تغير حتى صار تناوله فى مقدور الجماعات لا يظهر أثره الا اذا دخل فى عداد الغرائز وامتزج بالنفس فصار من المشاعر وهو ما يقتضى زمناً طويلا ولذلك وسائل سنأتى على بيانها فى موضع آخر

فلا يتوهمن القارىء أن أثر الفكر يظهر متى تبينت صحته حتى عند ذوى العقول النيرة . يتضح ذلك لمن عرف ضعف تأثير صحة الفكر فى السواد الاعظم من الناس بعد ظهورها جلياً . نعم اذا تم الوضوح جاز الاعتراف من السامعين ان كانوا من المستنيرين غير أنهم لقرب عهدهم بالايمان لا يلبثون أن ترجعهم فطرتهم الى معتقدهم القديم فاذا لاقيتهم بعد قليل من الايام رأيتهم يسوقون اليك حجتهم الأولى فى ثيابها الأولى بلا تغيير لأنهم خاضعون لسلطان افكار أصبحت بحكم الزمان ملكات فطرية وهى وحدها الفعالة فى موجبات اعمالنا وأقوالنا والجماعات لا تشذ عن هذه القاعدة

لكن متى توفرت الوسائل العديدة وتمكن بها الفكر من نفس جماعة كان له قوة لا تعارضها قوة وانتج اثاراً متعددة لابد من الرضوخ لحكمها . قطعت الافكار الفلسفية التي أدت الى الثورة الفرنساوية فى سيرها نحو نفوس الجماعات ما يقرب من مائة عام وكل يعلم مقدار قوتها الجارفة بعد ان تمكنت منها . هبت أمة بتمامها لنيل المساواة الاجتماعية وتحقيق الحقوق المعنوية واقامة صرح الحريات التى تنتهى اليها الآمال فزعزعت التيجان وجعلت عالى الغرب سافله اذ تساجلت الامم بالحروب عشرين عاما وشهدت القارة الاوروبية من سفك الدماء وقتل النفوس ما ينخلع له قلب تيمورلنك وجنكيزخان مشهد لم ير البشر قبله الى أى

حد يصل هول الفكر اذا انبثق

وكما أن وصول الافكار الى نفوس الجماعات يقتضى زمناً طويلا كذلك خروجها منها لهذا كانت الجماعات دائماً متأخرة فى أفكارها عدة أجيال عن الفلاسفة والعلماء وكل رجال السياسة يعلمون اليوم ما فى الافكار الاساسية المتقدم ذكرها من الخطأ ولكنهم يعلمون أن سلطانها لا يزال متمكناً لذلك هم مضطرون فى قيادة الأمم الى مراعاة مقتضياتها ولما يعتقدوا بشىء من صحتها

٢

تعقل الجماعات

لا يمكن القول مطلقاً بأن الجماعات لا تتعقل ولا تتأثر بالمعقول غير أن طبقة الأدلة التى تقيمها هى تأييداً لأمر من الأمور أو التى تؤثر عليها منحطة جداً من الجهة المنطقية فلا يصدق عليها اسم الدليل الاّ من باب التشبيه

وتلك الادلة المنحطة مبنية على قاعدة القياس كالأدلة الراقية الاّ أن رابطة الافكار التى تقرنها الجماعات ببعضها من حيث المشابهة أو التلازم ظاهرية لا حقيقية فهى تتسلسل عندها كما تتسلسل الأدلة فى ذهن الرجل الاسكيماوى الذى عرف بالتجربة أن الثلج وهو جسم شفاف يذوب فى الفم فاستنتج من ذلك أن الزجاج وهو شفاف أيضاً يجب أن يذوب فى الفم وكالمتوحش الذى يتصور ان أكل قلب العدو الشجاع ينقل شجاعته الى الآكل أو كالأجير الذى هضم المعلم حقه فقال بأن جميع المعلمين هضامون للحقوق

والحاصل أن تعقل الجماعات عبارة عن الجمع بين أشياء متخالفة لا رابطة بينها الا فى الظاهر والانتقال الفجائى من الجزئى الى الكلى ومن التخصيص الى التعميم بلا تروٍ والادلة التى يقدمها اليها اؤلئك الذين عرفوا كيف يقودونها كلها من هذا الطراز لأنها هى الادلة التى تؤثر فيها بخلاف سلسلة من الادلة المنطقية فانها لا تدركها بحال لذلك صح القول بأنها لا تتعقل أو هى تتعقل خطأ وانها

لا تتأثر بالمعقول وكثيراً ما يعجب الانسان عند مطالعة بعض الخطب من التأثير العظيم الذى احدثته فى سامعيها على مابها من الضعف والركاكة وكأنى بالمتعجب وقد نسى أن تلك الخطب انما صيغت لتؤثر فى الجموع لاليقرأها العلماء. فالخطيب الخبير بأحوال جماعته يعرف طريقة استحضار الصور التى تجذبها فاذا نجح فذلك ما اراد ولو القيت خطب فى عشرين مجلداً بعد ذلك ما كان لها من التأثير ما احدثته تلك الكلمات التى دخلت فى الرؤوس المراد اقناعها

وغنى عن البيان أن عدم قدرة الجماعات على التعقل الصحيح يذهب منها بملكة النقد أى يجعلها غير قادرة على تمييز الخطأ من الصواب وان لا تحكم حكماً صحيحاً فى أمر ما. أما الافكار التى تقلبها هى فهى التى تلقى اليها لا التى يناقش فيها والذين لا فرق بينهم وبين الجماعات فى هذا الباب كثيرون وسهولة انتشار بعض الافكار وصيرورتها عامة آتية على الاخص من عدم قدرة السواد الاعظم على اكتساب الرأى من طريق النظر الذاتى

٣

تخيل الجماعات

الجماعات كالذوات التى لا تتعقل فى حدة التخيل وفعله الدائم وفى قابليتها للتأثر الشديد فالصورة التى تحضرها من انسان أو واقعة أو رزء تكاد تؤثر فيها كما لو كانت الحقيقة بعينها وحال الجماعات أشبه بحال المنوّم الذى تقف فيه حركة العقل هنيهة فتحضر فى ذهنه صور مؤثرة جداً لكنها تزول بمجرد التأمل فيها ولما كانت الجماعات لا تعرف التعقل ولا التأمل كانت كذلك لا تعرف أن شيئاً ما غير معقول وغير المعقول هو الاشد فعلا فى النفس غالباً

لهذا كانت الجهة الغريبة والقصصية مما يقع تحت حواس الجماعة اكبر مؤثر فيها واذا دققنا النظر فى حضارة ما وجدناها انما تقوم على الغريب والقصص كذلك التاريخ للظاهر فيه شأن اكبر من الواقع والوهمى سائد على الحقيقى

لا تتعقل الجماعات الا بالتخيل ولا تتأثر الا به فالصور هى التى تفزعها وهى التى تجتذبها وتكون سبباً لأفعالها

لذلك كان التشخيص فى الملاهى من اكبر المؤثرات فى الجماعات دائماً لأنه يمثل لها الاشياء فى أجلى صورها فكانت عامة الرومانيين ترى السعادة كل السعادة فى العيش والملهى ولا تبتغى بعد ذلك شيئاً وقد مرت القرون وتعاقبت الدهور ولم يتغير هذا الخيال الا قليلا ولا يزال التمثيل اكبر مؤثر فى الجماعات من كل الطبقات فجميع الحاضرين يتأثرون بمؤثر واحد وان كانوا لا ينتقلون على الفور من الشعور الى العقل فذلك لان الفرد منهم وان بلغ منه عدم الالتفات للواقع مابلغ لا ينسى انه فى عالم الخيال وانه انما ضحك او بكى متأثراً بحوادث تصورية على انه قد يقع ان الصورة تفعل فى النفس فعل المؤثرات الحقيقية فتدفعها الى العمل اذ كثيراً ماسمعنا عن ملهى كان يكثر من تمثيل الروايات المحزنة فكان الحرس يحيط دائما بممثل الخائن الأثيم عند خروجه خوفا عليه من هياج المتفرجين الذين ثارت نفوسهم للانتقام منه لانه ارتكب تلك الجرائم الوهمية وهذا فيما ارى من اكبر الأدلة على حالة الجماعات العقلية وبالاخص على سهولة التأثير فيها فللوهمى عليها من ذلك ما للحقيق تقريباً وهى ميالة ميلا ظاهراً الى عدم التمييز بينهما

يقوم سلطان الفاتحين وتبنى قوة الممالك على تخيل الامم ولا تنجر الجماعات الا بالتأثير فى ذلك التخيل وكل حوادث التاريخ العظيمة كايجاد البوذية وتشييد اركان المسيحية والاسلام وقيام البروتستانتية والثورة فيما مضى وكاغارة الافكار الاشتراكية المزعجة فى هذه الايام انما هى نتائج قريبة أو بعيدة لتأثرات شديدة فى تخيل الجماعات

ذلك هو العلة فى ان جميع اقطاب السياسة فى كل عصر وفى كل أمة حتى أشدهم استبداداً اعتبروا تخيل أممهم أساساً تقوم عليها قوتهم وما فكروا يوما فى ان يحكموا الناس بدونه

قال نابليون فى مجلس شورى الحكومة (انى اتممت حرب الفندائيين لما تكثلكت واستوليت على مصر اذ اسلمت وتوجت بالظفر فى حرب ايتاليا لانى قلت بعصمة البابا ولو كنت احكم شعباً يهودياً لأعدت معبد سليمان) ويظهر الى انه لم يقم منذ الاسكندر الاكبر وقيصر بين عظماء الرجال من عرف كيف يكون التأثير فى تخيل الجماعات مثل نابليون فقد كان ذلك التأثير همه الدائم ما نراه فى انتصاراته وخطبه وأحاديثه ولا فى عمل من اعماله وكان يفكر فيه وهو على سرير موته

فاما كيفية التأثير فى تخيل الجماعات فسنذكرها وانما نكتفى هنا بالاشارة الى ان ذلك لا يكون ابداً بمخاطبة الادراك والعقل اعنى بطريقة البحث والتقرير بدليل ان (انطوان) لم يهج نفوس الامة على قاتل قيصر بقوة البديع وعلم البيان بل اثارها لما قرأ وصية المقتول واشار بالقوم الى جثته

الذى يؤثر فى خيال الجماعات هو ما يتمثل لها فى صورة اخاذة جلية مجردة عن الشرح والذيول غير مصحوبة الا بما فيه غرابة أو سر مكنون كانتصار باهر أو معجزة بالغة أو جرم فظيع أو امل دونه الامل فينبغى أن ترمى الاشياء جملة على علاتها وان لا يوضح كنهها ابداً لان مائة جرم صغير أو مائة رزء صغير لا تؤثر أقل تأثير فى تصور الجماعات لكن جرماً واحداً كبيراً أو رزءاً كبيراً واحداً يؤثر فيها أثراً شديداً وان قل ضرره كثيراً عن ضرر مائة الرزء كلها وبرهانه أن القوم كادوا لا يشعرون بضرر النزلة الوافدة التى أخذت على باريس منذ بضع سنين فاماتت من سكانها خمسة آلاف نسمة فى بضعة اسابيع لان هذه القتلة لم تبد أمام الجمهور فى صورة بينة بل علموها من الاحصاآت اليومية التى كانت تنشر فى حينها ولو ان حادثا واحداً قتل بسببه خمسمائة بدل تلك الآلاف الخمسة وكان ذلك فى يوم واحد وفى الطريق العام كما لو سقط برج ايفل لتأثروا منه تأثراً عظيما

انقطعت أخبار احدى بواخر الاطلانطيق فظن انها غرقت وكان لذلك فى

خيال الجماعات تأثير كبير دام ثمانيـة أيام ودل الاحصاء الرسمى عـلى غرق ٨٥٠ مركب شراعى و ٢٠٣ مركب تجـارى فى سنة ١٨٩٤ وحدها ضاع معها من الأرواح والارزاق مالا تقدر قيمته وما هو أكبر من قيمة تلك الباخرة بما فيها لو فقدت ومع ذلك لم يشتغل الناس بهذه الخسارة لحظة واحدة

نتج من هذا ان الحوادث ليست هى التى تؤثر بذاتها فى تخيل الجماعات بل المؤثر هو كيفية وقوعهـا وكيفية تمثيلها أعنى انه يجب أن يتكون من مجموعهـا صورة أخاذة تملأ الفكر وتضيق عليه ومن عرف كيف يؤثر فى تخيل الجمـاعات عرف كيف يقودها

الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

ماهو الشعور الدينى — الشعور الدينى مستقل عن عبـادة الالوهيـة — مميزات الشعور الدينى — قوة المعتقدات التى لها صبغة دينية — أمثلة شتى — فى ان آلهة العامة لم تزل — فى الصور الجديدة التى تظهر بها تلك الآلهة — الشكل الدينى للالحاد — أهمية هذه المبادىء من الجهة التاريخية — فى ان الاصلاح أو قيام البروتستانتية وواقعة صانت بارتلمى وزمن (الهول) وجميـع الحوادث المماثلة هى أثر مشاعر الجماعات الدينية لا أثر ارادة فرد واحد

—

بينا ان الجماعات لاتعقل وانها تقبل الافـكار أو ترفضها جملة وانها لاتطيق المعارضـة ولا تحتمل المناظرة وان المؤثرات التى تفعل فيها تحتل منها دائرة الادراك كلها وسرعان ماتنتقل من التأثر الى الفعل وانها اذا حسن التـأثير فيها تضحى نفوسها فداء المقصد التى وجهت اليه وكـذلك عرفنا ان مشاعرها شديدة

متطرفة فالميل عندها لا يلبث أن ينقلب عبادة والنفور لا يكاد يدخل عليها حتى يصير سخيمة وتلك البيانات العامة تشعر بكنه اعتقاداتها

اذا دققنا النظر فى اعتقاد الجماعات أيام سيادة الأديان أو فى أزمنة الثورات السياسية الكبرى كالتى حصلت فى القرن الماضى رأينا انها تتصبغ دائماً بصبغة مخصوصة لا يسعنى التعبير عنها بأحسن من تسميتها بالشعور الدينى

ولهذا الشعور مميزات بسيطة للغاية كعبادة ذات يتوهم انها فوق الذوات والخوف من القوة الخفية التى تظن لها والخضوع الأعمى لأوامرها واستحالة البحث فى تعاليمها والرغبة فى نشرها والنزوع الى معاداة من لا يقول بها ومتى تكيف الشعور بهذه الصفة فهو من طبيعة الشعور الدينى سواء كان محله ألهاً لا يرى أو معبوداً من الحجر أو من الشجر أو بطلا من الشجعان أو رأياً سياسياً فكله شعور تدخل فيه المعجزات وخوارق العادات والجماعات ترى ان فى كل ماخلب لبها واسترعى قلبها قوة دونها قوة البشر

وليس المتدين هو الذى يعبد الهاً بل متى اسلم الانسان عقله وارادته ومافيه من حماسة وتعصب لخدمة مبدأ أو ذات جعلها غاية مقصودة ومرمى أفكاره وأقواله فهو دائن بما توجه اليه

ومن المعلوم أن التعصب وعدم الاحتمال يصاحبان على الدوام كل شعور دينى ويلازمان كل من اعتقد انه ملك ناصية السعادة فى الحياة الدنيا أو فى الآخرة وهاتان الصفتان توجدان فى كل جماعة تحركت بأحد المعتقدات فقد كان اليعاقبة زمن « الهول » متدينين كما كان أهل الاضطهاد متدينين ومنبع حماسة الفريقين فى القسوة واحد

كذلك تظهر معتقدات الجماعات بالخضوع الاعمى والتعصب الوحشى والاكراه فى الدعوة وكلها صفات من لوازم الشعور الدينى وما البطل الذى تهلل الجماعة له الا اله فى نظرها. هكذا كان نابوليون مدى خمسة عشر عاماً ولم يكن لمعبود سواه عباد أشد اخلاصاً من الذين عبدوه ولم يسهل على معبود قيادة النفوس الى حتفها

اكثر منه وماكان لآلهة الوثنية والنصرانية سلطان على القلوب أعز من سلطانه

ان جميع موجدى الديانات ومؤسسى المذاهب السياسية لم يقيموها الا لأنهم تمكنوا من أحداث التعصب الذى يجعل الانسان يرى سعادته فى العبادة والطاعة وبهيئه لأن يهب حياته لمعبوده . هكذا كان الحال فى كل وقت وزمان ولقد أصاب موسيو « فوستان دى كولنج » حيث قال فى كتابه على بلاد الغلوا الرومانية أن الدولة الرومانية لم تدم بالقهر والقوة ولكن بما وجد فى النفوس من الاعجاب بها أعجابا دينياً قال « ولم يرو لنا التاريخ أن دولة مكروهة من شعوبها دامت خمسة قرون والا لتعذر أن نفهم كيف أن ثلاثين كوكبة من جند الامبراطورية تمكنوا من قهر مائة مليون على الطاعة » انما أطاع القوم لأن الامبراطور الذى كان يمثل عظمة الرومان كان يعبد عبادة الآلهة باتفاق فكان له فى كل قرية حتى الحقيرة محراب . وقد سرى فى المملكة من أولها الى آخرها دين جديد مناسكه عبادة القياصرة . وقبل ظهور المسيحية ببضع سنين أقامت بلاد الغلوا كلها وكانت ستين مدينة هيكلا للامبراطور (أوغسطس) بالقرب من مدينة (ليون) وكان لقسوس هذا الهيكل المقام الاول فى نفوس سكان تلك البلاد ومحال أن يكون الباعث على ذلك كله الخوف أو الخنوع فأن الخنوع لا يوجد فى أمة بتمامها ثم هو لا يدوم ثلاثة قرون وماكانت البطانة هى التى تعبد الامير وحدها بل روما جميعها بل الغلوا كلها بل بلاد الاندلس واليونان وآسيا

ليس لفاتحى النفوس فى هذا الزمان معابدوهياكل لكن لهم صور وتماثيل والعبادة التى يعبدون بها لا تخالف كثيراً ما كانوا به يعبدون ومعرفة فلسفة التاريخ تتوقف على اجادة معرفة هذا المبحث فى علم روح الجماعات . من لم يكن الهاً لها فليس شيئاً مذكوراً

لا يقولن قائل تلك أوهام كانت فى الاعصر الماضية فبددها العقل فى هذه الايام لأن العقل لم يكن لينتصر فى محاربة الشعور أبداً نعم لم تعد الجماعات تطيق اسم الالوهية والدين الذى دانت لحكمه ذلك الزمن المديد ولكن معبوداتها لم

تكثر كثرتها منذ مائة عام وهى لم تقم للآلهة السابقين من التماثيل والمحاريب مقدار ما أقامت لآلهة هـذه الايام والذين نقبوا عن الحركة العمومية المسماة « بولنجية » التى حصلت فى السنين الاخيرة يعلم سهولة ظهور الشعور الدينى فى الجماعات فلم يكن من فندق أو قهوة فى قرية الا وفيها صورة البطل وكانوا ينسبون اليـه القدرة على رد المظالم كلها ومداواة الآلام كلها وكان الالوف من الناس على استعداد لتضحية حياتهم من أجله ولو كان فى اخلاقه مقوم لشهرته ولو قليلا لنال المكان الأرفع فى التاريخ

لذلك نرى من الفضلة تكرار أنه لا بد للجماعات من دين ما دامت جميع المعتقدات السياسية أو الالهية أو الاجتماعية لا تطمئن عندها الا اذا لبثت ثوب الدين الذى يحميها من الجدل ويجعلها فوق بحث الباحثين بل لو امكن ادخال عدم الاعتقاد فى الجماعات لاشتد تعصبهم فيه كأنه معتقد دينى ولصار فى الخارج ديناً يتعبد به الناس ومن الامثلة الغريبة على ما نقول ما كان من أمر تلك الفئة القليلة صاحبة مذهب الوضعيين فقد وقع لها ما وقع للرجل العدمى « نهيلست » الذى روى لنا العلامة « رستو فيسكى » قصته قال اشرق ذات يوم نور العقل على ذلك العدمى فعمد الى صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين احد المعابد وحطمها وأطفأ الشموع ووضع مكان الصور مؤلفات بعض الفلاسفة الذين لا يعتقدون مثل (بوخنر) و « موليشوت » ثم تولاه التقى فاوقد الشموع حول هاتيك الكتب فحل اعتقاده الدينى كان قد تبدل ولكن مشاعره الدينية ما تبدلت أبداً

وعليـه لا يدرك الباحث أهم الحوادث التاريخية تمام الادراك الا اذا وقف على الصبغة الدينية التى ينتهى حتما اليها اعتقاد الجماعات . ومن الحوادث الاجتماعية ما ينبغى البحث فيه على طريقة علماء النفس لا على طريقة الطبيعيين فان مؤرخنا العظيم « تاين » لم ينظر فى الثورة الفرنساوية الآ نظراً طبيعياً لذلك فاتته حقيقة الحوادث غالباً نعم لم تفته من الوقائع فائتة ولكنه غفل عن البحث فى روح الاجتماع فلم يصل الى علل ما اثبت منها وقد هالته الوقائع بما اشتملت عليه من

الدماء والتوحش والقسوة فلم ير فى أبطال ذلك الزمن الكبير الا قطيعاً من المتبربرين السفاحين انطلقوا وراء شهواتهم ولم يجدوا مانعاً يصدهم عما كانوا يشتهون على انه لاسبيل لادراك حقيقة ما كان فى الثورة الفرنساوية من القسوة وسفك الدماء والحاجة الى نشر الدعوة واعلان الحرب على جميع الملوك الا اذا فطن الباحث أنها أى الثورة أثر معتقد دينى جديد حل فى نفوس الجماعات ومثل ذلك أيضاً كانت قيامة الاصلاح « البروتستانتية » ومقتلة صانت بارتلمى و (الاضطهاد) و (الهول) فكلها فظائع ارتكبتها الجماعات المتحمسة بشعور من شأنه أن يدفع الذى يحل فى قلبه الى استعمال النار والحديد لاستئصال كل ما يعترض قيام المعتقد الجديد من دون أن تأخذه رحمة ولا حنان لذلك كانت وسائل الاضطهاد هى وسائل جميع المعتقدين الحقيقيين ولو أنهم استعملوا غيرها ما كانوا من الموقنين

ولا تظهر فى الوجود أمثال الانقلابات التى مر ذكرها الا اذا قذفت من جوف الجماعة وليس فى استطاعة اكبر المستبدين اثارتها والمؤرخون الذين رووا لنا أن الملك هو السبب فى واقعة صانت بارتلمى كانوا يجهلون روح الجماعات وروح الملوك معاً لأن مثل هذه المظاهرات لا تخرج الا من قلب الجماعات ولا يقدر اكبر الملوك وأشدهم استبداداً على اكثر من تعجيلها أو تأجيلها فليس الملوك هم الذين احدثوا واقعة صانت بارتلمى ولا حروب الدين كما أن (روبسبير) و (دانتون) و (صانت جوست) ليسوا هم الذين أحدثوا (الهول) بل نجد على الدوام وراء هذه الحوادث روح الجماعات لا سلطة الملوك

الباب الثانى

افكار الجماعات ومعتقداتها

الفصل الأول

العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وأفكارها

العوامل التحضيرية لمعتقدات الجماعات ـ فى أن ظهور معتقدات الجماعة نتيجة اختمار سابق ـ البحث عن العوامل المختلفة فى تلك المعتقدات

(١) الشعب وماله من التأثير الاول ـ فى انه مستودع ما ترك الآباء

(٢) التقاليد وكونها خلاصة روح الشعب ـ أهمية التقاليد من الجهة الاجتماعية فى أنها تصير مضرة بعد أن كانت لازمة ـ فى أن الجماعات أشد احتفاظاً للأفكار التقليدية

(٣) الزمن وكونه يهيىء استقرار المعتقدات ثم زوالها ـ فى انه هو الذى يولد النظام من الفوضى

(٤) النظامات السياسية والاجتماعية ـ فى الخطأ فى تقدير تأثيرها ـ فى ان تأثيرها ضعيف جداً ـ فى انها آثار لا مؤثرات ـ فى انه لا يتيسر للأمم أن تختار منها ما تظنه الأحسن ـ فى ان النظامات عناوين يندرج تحت الواحد منها أمور متخالفة بالمرة ـ كيف توجد النظامات ـ فى انه لا بد لبعض الأمم من بعض نظامات رديئة نظريا كجمع السلطة وتوحيدها

(٥) التعليم والتربيه ـ خطاء الناس فى أفكارهم الحالية من حيث تأثير التعليم فى الجماعات ـ بعض ايضاحات من الاحصاآت ـ التربية اللاتينية تضعف الاخلاق

فى التأثير الذى يمكن ان يكون للتعليم ـ أمثلة عن أمم مختلفة

—

فرغنا من البحث فى تركيب القوة المدركة عند الجماعات وعرفنا كيف تشعر وكيف تفكر وتتعقل ونريد الآن أن نبحث فى كيفية تولد آرائها واعتقاداتها وكيفية حلول هذه الآراء والمعتقدات واستقرارها فى نفوسها

العوامل التى تولد الآراء والاعتقادات فى الجماعات قسمان بعيدة وقريبة

فأما العوامل البعيدة فهى التى تهيء الجماعات لقبول بعض المعتقدات دون بعض أعنى انها تعد التربة التى تنبت فيها أفكار جديدة ذات قوة وأثر مدهشين وظهور تلك الافكار يكون فجأة فقد تشبه فى انبثاقها والعمل بها انقضاض الصاعقة الا ان الواقع انها نتيجة عمل سابق طويل ينبغى البحث عنه

وأما العوامل القريبة فهى التى تأتى بعد هذا العمل الطويل ولا أثر لها بدونه ووظيفتها تكوين الاعتقاد الداعى الى الفعل أعنى انها تقوم الفكر وتقذف به الى الخارج مع جميع مايحتمل من النتائج فهى التى تدفع الجماعات فجأة الى القيام بما تمكن من نفسها من الاعمال وهى علة القلاقل والاعتصابات والتفاف الجم الغفير حول رجل يرتفع بذلك الى الأوج أو ضد حكومة تهبط الى الدرك الأسفل

تتعاقب هذه العوامل بقسميها فى جميع حوادث التاريخ العظيمة ففى الثورة الفرنساوية وهى أكبر مثال لتلك الحوادث كانت العوامل البعيدة هى كتب الفلاسفة وعسف الشرفاء وتقدم العلم وهى التى هيأت روح الجماعات ثم جاءت العوامل القريبة مثل خطب الخطباء ومعارضة الملك فى اجراء اصلاحات لاتعد شيئاً كبيراً وهى التى أثارت الجماعات بالسهولة

ومن العوامل البعيدة ماهو عام بمعنى انه يؤثر فى معتقدات كل جماعة وفى آرائها وهى الشعب والتقاليد والزمن والنظامات والتربية

وسنبحث فى شأن كل واحد من هذه العوامل

١

الشعب

بدأنا به لأن له المقام الاول بين العوامل فله وحده من الاثر مايربو على آثارها كلها وقد وفينا البحث فيه حقه فى كتابنا (النواميس النفسية لتطور الامم) حتى لم يعد من المفيد أن نرجع اليه هنا اذ بينا هناك ماهو الشعب من حيث التاريخ وكيف انه متى كملت مميزاته يصير بمقتضى الوراثة نفسها ذا قوة عظمى وتكون له روح ترجع اليها اعتقاداته ونظاماته وفنونه وجميع عناصر مدنيته كذلك بينا ان قوة الشعب تبلغ حداً يتعذر معه انتقال أحد هذه العناصر من أمة الى أخرى بدون أن يتغير تغيراً عاما وخصصنا أربعة فصول منه لشرح هذه القضية لكونها حديثة العهد ولانه يصعب فهم التاريخ بدونها هناك يرى القارىء انه رغم ظواهر الحال التى قد توجب اللبس يستحيل أن تنتقل اللغة أو الدين أو الفنون أو أى عنصر من عناصر المدنية من أمة الى أخرى الا اذا أصابها التغير . والتحول . نعم ان البيئة والاحوال والحوادث تشخص مقتضيات الزمن الذى هى فيه وقد يكون لها تأثير كبير لكنه تأثير عرضى على الدوام اذا تضارب مع مقتضيات الشعب أعنى مع سلسلة تلك المؤثرات الوارثية

على انا سنعود الى ذكر شأن الشعب فى كثير من فصول هذا الكتاب ونوضح انه لقوته يسود على غيره من مميزات روح الجماعات وان ذلك هو السبب فى اختلاف جماعات كل بلد مع جماعات البلد الآخر من جهة المعتقدات وخطة العمل اختلافا كبيراً وكذا المؤثرات التى تتأثر بها

٢

التقاليد

التقاليد عبارة عن ماضى الامة فى أفكارها وحاجاتها ومشاعرها فهى تشخص

روح الشعب ولها فى القوم تأثير عظيم

تقدم علم تركيب الاجسام من يوم أن بين علم التكوين مقدار تأثير الماضى فى تطور الكائنات وسيتقدم علم التاريخ أيضاً حينما ينتشر هذا الاكتشاف لأن انتشاره لم يعم بدليل أن كثيراً من أقطاب السياسة لا يزالون على أفكار أهل القرن الماضى ممن كانوا يتخيلون أنه يتيسر للأمة أن تنخلع عن ماضيها وتنشىء نفسها من جديد غير مستهدية فى ذلك الاّ بنور العقل وحده وفاتهم أن الأمة جسم منظم أوجده الماضى فهى كغيرها من الاجسام لا تستطيع الانتقال من طور الى طور الاّ بتراكم اثار الوراثة فيها على مهل

والذى يقود الناس ولا سيما اذا اجتمعوا انما هى التقاليد وهم لا يسهل عليهم أن يغيروا منها سوى الاسماء والاشكال

وليس هذا مما يوجب الأسف اذ لولا التقاليد ما كان هنالك شىء يقال له روح قومية ولا حضارة ممكنة الا ترى أن هم الناس منذ وجدوا أن يكون لهم شنشنة تقاليد فاذا زال نفعها اجتهدوا فى هدمها والحاصل أنه لا مدنية الاّ بالتقاليد ثم الرقى موقوف على هدمها . والصعوبة فى ايجاد التوازن بين التقلب والبقاء الاّ انها صعوبة كبرى فاذا تأصلت فى الأمة عادات وتمكنت منها أخلاق عدة أجيال تعذر عليها الانتقال واصبحت كالامة الصينية غير قادرة على التحسن . ولا تؤثر فيها الثورات العنيفة لانها لا تأتى الاّ باحدى نتيجتين فاما أن الحلقات التى تقطعت من السلسلة تنضم وتلتحم ببعضها فيعود الماضى الى التربع فى سيادته بدون تغيير ما . واما أن تبقى تلك الحلقات منثورة فهى الفوضى وخليفتا التقهقر والانحطاط

لذلك كان اكبر النعم التى يجب أن تصبو اليها الامة هى المحافظة على النظامات التى ورثتها وان تسير فى الانتقال بها من طور الى اكمل منه على مهل وبلا اهتزاز ذلك مطلب عزيز المنال ولم يفز به الاّ دولة الرومان فى الازمان الخالية وأمة الانكليز فى الازمان الحاضرة

وأشد الناس محافظة على الافكار التقليدية واصعبهم مراساً فى معارضة من

يحاول تبديلها هى الجماعات خصوصاً الجماعات التى تتكون منها فئات معينة وقد سبق لى أن افضت الكلام على تمسك الجماعات بالماضى وبينت أن أشد الثورات عنفاً لا تؤدى الا الى تغيير فى الالفاظ ومن شهد فى آخر القرن الماضى هدم الكنائس وطرد القسوس واعدامهم والاضطهاد العام الذى كان واقعاً على أهل الكثلكة كان يظن أن السلطة الدينية قد بادت ولم يبق لها أثر لكن لم يمض الا بضع سنوات حتى قام الناس ينشدون معابدهم فاضطرت الدولة الى اعادة الدين الذى طمست بالامس معالمه . ومما يوضح ذلك بأجلى بيان ما ذكره (فوركروا) أحد رجال الثورة فى تقريره اذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال « ان ما هو مشاهد فى كل مكان من اقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنساويين يطلب الرجوع الى عاداته الاولى ولم يعد فى الامكان مقاومة هذا الميل فى الامة لأن السواد الاعظم فى حاجة الى الدين والى العبادة والى القسوس ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطأ وقعت أنا فيه أيضاً ـ القول بامكان ايجاد تعليم عام يكفى لازالة الاوهام الدينية ووجه الخطأ ان فى الدين سلواناً للقسم الاكبر من المساكين ومن أجل ذلك يجب أن نترك للامة قسوسها ومعابدها وعبادتها

هكذا اختفت التقاليد برهة ثم استردت سلطانها وهو مثل ليس كمثله مثل يبين سلطان التقاليد على النفوس وليست الاشباح التى لا يستهان بها هى التى تسكن المعابد ولا فى القصور يقيم عتاة المستبدين أولئك يبادون فى طرفة عين انما الذى لا قبل لنا به هم أولئك الارباب الذين تمكنوا فى النفوس فتحكموا فى الارواح فلا يزول ملكهم الا بفعل الزمان رويداً رويداً وجيلا بعد جيل

٣

الزمان

أهم العوامل فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجتماع هو الزمان كما انه كذلك

فى المسائل التى يبحث عنها علم الاجسام المنظمة . فهو الموجد الحقيق الوحيد وهو الهادم القوى الوحيد . هو الذى كون الجبال من حبيبات الرمال ورفع الخلية الحقيرة التى اشتملت على أصل الوجود النوعى الى مقام الانسان وكل ظاهرة وكل حادثة لاتتغير ولا تتحول الا بالزمان ولقد أصاب من قال ان النملة اذا امتد أمامها الزمن وسعها أن تجعل الجبل الرفيع مهاداً ولو ان موجودا تمكن من تصريف الزمان كما يشاء لكان صاحب القوة التى يعترف بها المؤمنون للواحد الديان

بحثنا هـذا قاصر على تأثير الزمان في آراء الجماعات ومعتقداتها وهو فيها له كذلك الأثر العظيم فهو القاهر فوق أكبر المؤثرات الاخرى من التى لا تكون بدونه كالشعب وغيره وهو الذى يولد المعتقدات فينميها ثم يميتها ومنه تستمد قوتها وبفعله يتولاها الضعف والانحلال

والزمان هو بالاخص محضر آراء الجماعات ومعتقداتها أو هو مهيىء التربة التى تنبت فيها ولذلك صح وجود بعض الافكار فى زمن وامتنع وجودها فى زمن آخر وهو الذي يركز المعتقدات بعضها فوق بعض وكذا الافكار فيهيىء بذلك قيام الآراء والمذاهب فى العصور المتتابعة لانها لاتنبت صدفة ولا توجد اتفاقا بل ان لكل واحد منها جذورا تمتد فى زمن بعيد فاذا انبثقت فانما الزمان هو الذى هيأ تفتح أزهارها واذا أردت أن تعرف كنهها فارجع الى ماضيها لانها بنات الماضى وهى أمهات المستقبل وهى اماء الزمان على الدوام

نتج من هذا أن الزمان هو صاحب السيادة الحقيقية فينا وما علينا الا أن نتركه يعمل لنرى كل شيء يتحول ويتبدل . نحن الآن فى فزع شديد من مقاصد الجماعات التى تهددنا ومما تنبئنا به من تقويض أركان الهيئة الحاضرة ومن الانقلاب المنتظر فيها . ولكن الزمان سيتكفل وحده باعادة التوازن بيننا . قال موسيو (لافيس) : ما من نظام يقوم فى يوم واحد بل لا بد فى تقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال فقد بقى نظام حكم الشرفاء مضطربا

غير واضح عدة قرون حتى تبين وتأصلت له قواعد يعرفها الناس كذلك قطعت الملوكية المطلقة قروناً قبل أن تهتدى الى الاصول المنظمة التى تدير بها حكومة البلاد وكم من اضطراب وقع فى أدوار هذا الانتقال »

٤

النظامات السياسية والاجتماعية

لا يزال الناس يذهبون الى أن النظامات تقوم معوج الهيئة الاجتماعية وان تقدم الامم أثر من آثار اتقان تلك النظامات واصلاح الحكومات وانه يمكن احداث الانقلابات الاجتماعية بواسطة الاوامر والقوانين . كان هذا مذهب الثورة الفرنساوية فى بدايتها واليه يذهب الآن ايضاً من اتخذوا مجرد الخوض فى الاجتماعات مذهباً

ذاك وهم تأصل فى الافكار لما تبدده التجارب على تكرارها وقد ضاعت فيه متاعب الفلاسفة والمؤرخين الذين تصدوا لبيان فساده لكنهم لم يلاقوا صعوبة فى اقامة الدليل على أن النظامات نبات الافكار والمشاعر والاخلاق وان الافكار والمشاعر والاخلاق لا تتغير بتغيير القوانين وان الامم لا تختار نظاماتها كما تشتهى كما انها لا تملك اختيار لون اعينها وشعر رؤوسها بل ان النظامات والحكومات ثمرة الشعب الذى هى فيه فليست هى التى تخلق زمنها ولكنها هى التى اوجدها زمانها . وليست الامم محكومة كما يشاء لها الهوى أنى تشاء بل كما تشاء اخلاقها وطباعها وكما أن كل نظام لم يستقر الآ بعد قرون عدة كذلك ينبغى لتغييره قرون عدة . وليس للنظامات قيمة نوعية فى ذاتها فلا هى حسنة لذاتها ولا هى رديئة لذاتها وان ما صلح منها لأمة فى زمان يجوز أن يكون مضراً فى أمة أخرى

لهذا كان من المحقق أن الامة لا تملك كل الملك تغيير نظاماتها نعم فى امكانها أن تبدل اسماءها بواسطة الثورات العنيفة والاضطرابات القوية لكن اللب يبقى كما كان أما الاسماء فهى عناوين لا يلتفت اليها المؤرخ الذى ينقب عن حقائق

الأشياء الا ترى أن أعظم أمة ديمقراطية فى الارض هى الامة الانكليزية مع كونها تعيش تحت أمرة حكومة ملكية وان اكبر أمة حفها الاستبداد هى الجمهوريات الاسبانية الامريكية رغم نظامها الجمهورى الذى يحكمها ذلك مايعترف به للانكليز اعظم الجمهوريين تقدماً فى الولايات المتحدة وانى أذكر للقراء ماجاء فى جريدة (فروم) الامريكية ونقلته عنها مجلة المجلات الصادرة فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ قالت « لاينبغى أن ينسى الناس حتى الذين هم من أكبر أعداء الشرفاء ان انكلترة هى أول أمم الارض فى الدمقراطية أعنى الأمة التى بلغ فيها احترام حقوق الفرد غايته والتى بلغ أفرادها من الحرية أعلى مقام » وبالجملة فائد الامم أخلاقها وطباعها لا حكوماتها . تلك قضية حاولت بيانها فى كتابى السابق وأثبتها بأوضح دليل وأقوى مثال

لذلك كان من العبث جداً اضاعة الزمن فى خلق نظام جديد من جديد بل لا فائدة من شد رحال علم المعانى والبيان لخلق مثل هذا النظام فان ذلك من عمل الجهلاء . والحاجة والزمان هما الكفيلان باعداده اذا عقل الناس وتركوا هذين العاملين يعملان . هذا الذى اعتمد عليه الانكليز السكسونيون وهذا هو الذى يقوله لنا مؤرخهم العظيم (ماكولى) ضمن كلام يجب على ادعياء السياسة فى الامم اللاتينية أن يحفظوه على قلوبهم . بدأ المؤرخ ببيان ما أحدثته القوانين الانكليزية من الآثار الطيبة على مايظهر بها من الرداءة والتناقض والبعد عن المعقول ثم قارن بين نظام انكلترا والبضعة عشر نظاما التى اختنقت بين تقلصات الامم اللاتينية فى أوربا وأمريكا وأوضح ان الاول لم ينله التغيير الا على مهل جزءاً بعد جزء بتأثير الضرورة لا بتأثير النظر العلمى أبداً ثم قال « القواعد التى سار عليها المائتان وخمسون برلمانا من عهد حنا الى عهد فيكتوريا فى مداولاتها وقراراتها هى انها ما اهتمت مطلقا بحسن التنسيق بل كان كل همها فى الفائدة ولم ترفع شاذاً لشذوذه ولم تأت بجديد الا اذا تحققت ان حرجاً استولى على النفوس من أجله ولم تجدد الا بمقدار ماتتفادى من هذا الجرح ولم تقرر مبدأ

أعم من الضرورة التي اقتضته »

ولو أردنا بيان كون القوانين فى كل أمة منتزعة من روحها وانه لايمكن لذلك تغييرها عنوة وقسراً للزم أن نأتى على كل قانون ونخوض فى كل نظام . فمثلا يجوز الجدل فلسفياً فى هل حصر السلطة وارجاعها فى النهاية الى يد واحدة أفضل من تفريقها أم العكس أولى . لكن اذا رأينا أمة مؤلفة من عناصر مختلفة قضت ألف عام فوصلت بعد ذلك الى حصر السلطة وجمعها ورأينا من جهة أخرى ان ثورة عظيمة جاءت لتحطم كل نظام ولده الزمان قد احترمت هذا الحصر وبالغت فيه كان لنا أن نقول ان هذا النظام هو ابن الضرورة التى لامفر منها وانه شرط من شروط حياة تلك الامة وأن نرثى لحال أولئك الذين قصرت احلامهم من السياسيين الذين يذهبون الى وجوب ابطال ذلك النظام ولو ان الصدفة ساعدتهم على نيل مايبتغون لكانت نتيجة ذلك قيام حرب أهلية يستطير شررها والعودة عاجلا الى حصر السلطة بأشد مما هى عليه والذى يقارن بين المنافسات الدينية والسياسية الشديدة القائمة فى أجزاء البلاد الفرنساوية والناشئة على الاخص من اختلاف عناصر الامة وبين ميل البعض الى تجزئة السلطة وتوزيعها أيام الثورة وعقب الحرب الفرنساوية الالمانية يتبين له ان العناصر المختلفة التى لاتزال حية فى بلادنا لاتزال بعيدة عن الامتزاج والاتحاد وان أحسن عمل جاءت به الثورة هو حصر السلطة وجمعها وتقسيم البلاد تقسيماً اعتبارياً لا طبيعياً الى أقسام متعددة توصلا الى مزج الاقاليم القديمة وخلط سكانها بعضهم ببعض فاذا أمكن اليوم تحقيق مايصبو اليه أولئك الذين لا يقرأون عواقب الاعمال من التجزئة والتوزيع أدى ذلك الى اضطرابات تهرق فيها الدماء وتقتل النفوس ولا يغفل عن ذلك الا من نسى تاريخنا

نتج مما تقدم ان التأثير الحقيقى فى روح الجماعات لايكون من طريق النظامات واذا لفتنا الذهن الى الولايات المتحدة رأيناها ترفل فى حلل الرخاء وتخطر فى جلباب السعادة بفضل نظاماتها الديمقراطية ثم اذا رجعنا الى الجمهوريات الاسبانية الامريكية — ألفيناها وهى متمتعة بنظام مثله تتعثر فى أذيال التقهقر والفوضى

وحكمنا بأنه لا دخل لتلك النظامات لافى سعادة الاولى ولا فى شقاء الثانية وبأن الذى يحكم الأمم انما هو أخلاقها وكل نظام لايندمج مع هذه الاخلاق ويمتزج بها تمام الامتزاج يكون أشبه بالثوب المستعار وهو ستار لايدوم . نعم قامت حروب دموية وهبت ثورات عنيفة وستقوم حروب وتهب ثورات والغرض منها كان ويكون الزام الامم بنظامات يعتقد الناس أنها مجلبة السعادة كاعتقادهم فى آثار الاولياء والصالحين وقد يقال أن النظامات تؤثر فى نفوس الجماعات لانها تفضى الى مثل تلك الحروب والثورات ـ والصحيح أن لاتأثير لها البتة لأنا قد عرفنا أنها لا قيمة لها فى ذاتها سواء كانت الغلبة لها ام عليها وانما الذى يؤثر فى الجماعات أوهام وألفاظ وعلى الأخص الالفاظ تلك الالفاظ الخيالية القوية التى سنبين سلطانها

٥

التربية والتعليم

لكل عصر أفكار تسود فيه وان كانت فى الغالب من قبيل الخيالات وقد بينا فى غير هذا المكان ما لتلك الافكار من القوة وما هى عليه من القلة

ومن الأفكار السائدة فى هذا العصر ان فى التعليم قدرة على تغيير الرجال تغييراً محسوساً وان نتيجته التى لا يشكون فيها هى اصلاحهم بل ايجاد المساواة بينهم . ذكروا ذلك وكرروه فصار أحد المذاهب الثابتة عند الديمقراطيين واصبح التعرض له من أصعب الامور كما كان من الصعب التعرض لسلطان الكنيسة فى الزمن السابق

ولكن أراء الديمقراطيين فى هذا الموضوع كما هى فى كثير من الموضوعات الأخر مناقضة كل المناقضة لما اثبته علم النفس ولما دلت عليه التجارب فما أثبته الكثيرون من كبار الفلاسفة بلا عناء خصوصاً (هربرت سبنسر) كون التعليم لا يزيد فى تهذيب الانسان ولا فى سعادته ولا يغير من غرائزه وشهواته التى

تلقاها بالوراثة وانه اذا ساء طريقه كان ضرره اكبر من نفعه وأيد علماء الاحصاء هذه النظريات فقالوا ان الميل الى الجرائم يزداد بانتشار التعليم أو هو يزداد بانتشاره على طريقة مخصوصة وان الد أعداء الهيئة الاجتماعية وهم الفوضويون ينسلون غالباً الى مذهبهم مما حازوا السبق فى المدارس وأشار موسيو (أدولف جيو) وهو أحد أعاظم القضاة انه يوجد الآن فى كل أربعة الآف مجرم ثلاثة الآف متعلمون والف واحد أميون وان عدد الجرائم زاد مدى خمسين سنة من (٢٢٧) جريمة لكل مائة الف نسمة الى (٥٥٢) أعنى بنسبة (١٣٣) فى المائة ولاحظ أيضاً هو ورفقاؤه أن الجرائم تكثر بين الشبان الذين ابدلوا تعلم المهن على يد المعلمين بتعلمها فى المدارس الاجبارية المجانية

نعم مما لا يشك فيه انسان أن التعليم اذا حسنت طرائقه ينتج نتائج عملية ذات فائدة كبيرة فاذا هو لم يرفع درجة التهذيب ويؤثر فى رقى الاخلاق فانه ينمى الكفاآت الفنية ولكن من سوء الحظ أن الامم اللاتينية أسست التعليم على قواعد غير صحيحة ولا سيما منذ خمس وعشرين سنة ومع كون فطاحل العلماء مثل (بريال) و (فوستيل دى كولانج) و (تاين) وكثير غيرهم قد انتقدوها لا تزال تلك الامم على خطئها فيها وقد شرحت أنا أيضاً فى كتاب لى أصبح قديماً أن طريقة التعليم الحالى عندنا تحول القسم الاكبر ممن يتلقونه الى اعداء للهيئة الاجتماعية وتزيد كثيراً فى أصحاب اشد المذاهب الاشتراكية ضرراً

وأول خطر ينجم عن هذه التربية المسماة بحق تربية لاتينية آت من بنائها على قاعدة يحكم علم النفس بفسادها . ذلك انهم قالوا أن الحفظ عن ظهر القلب يربى الذكاء ويقوى الفطنة ثم انتقلوا من هذا الى وجوب الاكثار من الحفظ ما استطاعوا وصار المتعلم فى المدرسة الابتدائية والعالية حتى الذى يتلقى علوم الاستاذية لا يعمل الا للحفظ وهو فى ذلك كله لا يدرب مداركه وهو لا يمرن ملكة الاقدام على العمل من نفسه لأن التعليم فى نظره ينحصر فى القاء المحفوظ وفى الخضوع قال موسيو (جول سيمون) وهو أحد وزراء المعارف الاقدمين

« أن حفظ الدروس عن ظهر قلب وكذا حفظ متن فى النحو أو مختصر وحسن الالقاء وحسن التقليد تربية هى من الهزء بمكان اذ كل همة يبديها المتعلم فى هذه السبيل عبارة عن الاعتقاد بأن المعلم مصون عن الخطأ وذلك لا ينتج الا نقصنا وضعفنا »

ولو أن ضرر هذه التربية كان قاصراً على عدم فائدتها لا كتفينا بالعطف على اؤلئك الاطفال المساكين الذين يحفظون فى المدرسة نص « كلوتير » ومصارعات « نوستيرى » وفصيلات الحيوان وغير ذلك بدلا من أن يتعلموا أشياء كثيرة اخر نافعة لكن ضررها أكبر من ذلك فهى تولد فى نفس المتعلم سآمة شديدة من حالته التى هو عليها بمقتضى نشأته ورغبة شديدة فى الانسلاخ عنها فلا الصانع يبغى البقاء على صنعته ولا الفلاح يميل الى الدوام فى فلاحته وأقل الناس فى الطبقة الوسطى لا يختار لابنائه عملا الا فى وظائف الحكومة والمدرسة لا تربى رجالا قادرين على الحياة وانما تخرج عمالا لوظائف ينجح فيها الانسان دون أن يهتم بقيادة نفسه ولا أن يتقدم الى عمل من ذاته . فهى توجد فى أسفل سلم الهيئة الاجتماعية جيوشاً من الصعاليك الممتعضين المتهيئين دائماً للثورة . وفى اعلاه طبقتنا الوسطى الفارغة الحذرة المغفلة التى تعتقد اعتقاداً دينيا فى قدرة الحكومة وبعد امكانها وهى مع ذلك لاتنفك عن القدح فيها والتى تخطيء ثم تؤاخذ الحكومة بما أخطأت والتى لا تقدر على القيام بعمل لا يد للحكومة فيه

أما الحكومة التى تصنع حملة الشهادات من تلك المختصرات فلا يسعها ان تستصنع منهم الا القليل وتترك الباقين بالضرورة بلا عمل . فوقعت بذلك بين ضرورة تغذية أولئك والصبر على عداء هؤلاء احتشد ذلك الجمع العظيم من حملة الشهادات يحاصر جميع الوظائف من القمة الى القاعدة أى من الكاتب الصغير الى المعلم فالمدير وصرنا نرى التاجر لا يجد الآ مع المشقة نائباً يتولى أعماله فى المستعمرات . ونشاهد الالوف من الشهادات مكتظة أمام باب كل وظيفة مهما صغرت . ويوجد الآن فى مديرية السين وحدها من المعلمين والمعلمات عشرون

الفاً لا عمل لهم ترفعوا عن المعامل والمصانع وشخصوا الى الحكومة يطلبون القوت منها ولما كان عدد الذين يختارون منهم قليلا فعدد الغضاب كثير بالضرورة وهؤلاء مستعدون لكل نوع من أنواع الثورة والهرج تحت قيادة أى رئيس كان وكيفما كان الغرض . ذلك لأن اكتساب معارف لا يجد صاحبها سبيلا الى استعمالها هو من انجع الوسائل فى تهيئة المرء الى الخروج على أمته (١)

ومن الواضح أن الوقت قد فات لمقاومة هذا التيار وانما التجارب وهى آخر مرب للأمم ستظهر لنا خطأنا فهى التى تبرهن على ضرورة الاقلاع عن استعمال تلك الكتب الرديئة وابطال هذه الامتحانات التعسة واتباع طريقة تعليم فنى عملى يرد النشء الى المصانع والمعامل والمشروعات الاستعمارية وغير ذلك من الاعمال التى يجتهد أولئك النشء فى الهرب منها

هذا التعليم الفنى الذى تطلبه الآن العقول النيرة هو الذى تلقاه آباؤنا وهو الذى حافظت عليه الامم التى تحكم الدنيا بقوة ارادتها وبما أوتيت من الاقدام الذاتى فى الاعمال والقدرة على التصرف بالمشروعات

---

(١) على أن هذه الظاهرة ليست خاصة بالامم اللاتينية بل تشاهد فى بلاد الصين لكونها محكومة أيضاً بنظام قوى من « المندران » والمندرانية تنال هناك كما هو الحال عندنا بطريق الامتحان وهو عندهم عبارة عن تلاوة الطالب كتباً ضخمة عن ظهر قلبه والصينيون الآن يرون فى جيش المتعلمين الذين لا عمل لهم طامة كبرى على الأمة كذلك الحال فى الهند فمن يوم أن فتح الانكليز فيها المدارس لمجرد تعليم الوطنيين لا لتربيتهم كما يفعلون فى انكلترا ظهرت فيها طائفة مخصوصة من المتعلمين يقال لهم « بابوس » اذا لم يجدوا وظيفة انقلبوا أعداء الداء أشداء ضد الحكومة الانكليزية وكانت نتيجة التعليم سرعة انحطاط أخلاق جميع البابوس الذين دخلوا الخدمة منهم والذين لم يدخلوها وقد أفضت الكلام عن ذلك فى كتاب « تمدن الهند » ولاحظه أيضاً جميع المؤلفين الذين زاروا تلك البلاد الواسعة

كتب أحد كبار المفكرين موسيو « تاين » صفحات فى هذا الموضوع ما اجلها وسأنقل للقراء طرفا منها فيما يلى فابان بأوضح برهان أن تربيتنا فى الماضى كانت تماثل التربية عند الانكليز او الامريكان فى الوقت الحاضر او ما يقرب من ذلك ثم اتى بمقارنة جميلة بين الطريقة اللاتينية والطريقة الانكليزية واعرب بأفصح لسان عن نتائج الاثنتين

ولو كان الاكتساب السطحى لتلك المعارف الكثيرة واجادة تلاوة تلك الكتب التى لا عدّ لها مما يرقى ملكات العقل فينا لاجهدنا النفس لاحتمال مضار هذه التربية التى تعودناها ولولم تخرج الاعطلة ممتعضين فهل لها هذا الاثر ؟ لا والاسف يملأ قلبنا ان الادراك والتجارب والاقدام والخلق هى عدة الحياة ولا نجاح الاّ بها وليس شىء من ذلك فى الكتب . الكتب معاجم يستفيد المرء من مراجعتها لكن مما لا فائدة فيه نقل الفصول المطولة منها الى الدماغ

أما كون التعليم الفنى يربى العقل بما لاينال من التربية العلمية الجارية فذلك ماشرحه موسيو (تاين) شرحا وافياً اذ قال « لاتتولد الافكار الا فى مولدها الطبيعى الاعتيادى والذى ينبت بذورها هو المؤثرات الكثيرة المختلفة التى يتأثر بها الشاب كل يوم فى المصنع والمعدن والمحكمة ومكتب المحامى ودائرة الاشغال والمستشفى ومن مشاهدة الآلات والعدد والادوات ومن العمليات ومن اجتماع المبتاعين والفعلة ومن العمل نفسه ومما يصنع رديئا كان الصنع أو حسناً غالى الثمن أو رخيصاً . هذه هى الملتقطات الصغيرة التى تتناولها العين والاذن أو الأيدى أو الشم أيضاً التقاطا غير مقصود حيث تجتمع وتختمر وتأخذ لها حيزاً تنتظم فيه من نفس الشاب فترشده عاجلا أو آجلا الى تركيب جديد أو تبسيط مركب او طريقة اقتصاد أو تحسين اختراع والشاب الفرنساوى محروم من هذا الامتزاج النفسى فقد غابت عنه كل هذه العناصر السهلة التناول الضرورية فى الوقت الذى هو أحوج للاستفادة منها لانه مقصور مدى سبع سنين أو ثمان فى المدرسة بعيد عن التجارب الشخصية السهلة القريبة المنال التى

تحصل فى الذهن صورة قوية صحيحة من الاشياء والناس وتكسب معرفة الطرق المختلفة لاستعمال ذلك كله فضاع على تسعة من العشرة وقتهم وتعبهم مدى سنوات عدة من عمرهم سنوات ما كان أنفعها واكبر أهميتها بل قد كانت تكون الحد الفاصل بين بؤس ماض ومستقبل سعيد اليك اولا نصف الذين يتقدمون الى الامتحان أو الثلثين انهم لاينجحون وأخرج من بين الناجحين نصفهم او ثلثيهم وهم الذين ابلاهم الدرس فلا يعودون ينفعون . كلفوهم بما لايطيقون اذ طلبوا منهم يوم يجلسون على مقعد أو امام لوحة أن يكون مدى ساعتين أشبه بمعجم يلقى على السامعين جملة من العلوم التى يبحث فيها عن جميع ماعلم الانسان والواقع انهم كانوا ذلك أو مايقرب منه مدة ساعتين ولكنهم لايبقون كذلك بعد مضى شهر من الزمان فلا يقدرون ان يجوزوا الامتحان مرة اخرى لأن معارفهم كانت كثيرة كثيفة فتسربت من عقولهم ثم هم لا يكسبون منها جديداً لأن الملكات ألقت سلاحها ونضب ماء الاثمار منها اذ ذاك يبرز الشاب وعليه مخايل الرجل التمام وهو فى الغالب الرجل الذى قد فرغ منه. هذا الرجل يجمع اليه نفسه ثم يتزوج ويوطن النفس على ان يدور فى دائرة معينة وان يستقر على الدوران فى الدائرة عينها وينزوى الى العمل الضيق الذى اقام فيه وصار يؤديه بانتظام . ولا شىء بعد ذلك . هذه هى الثمرة فى المتوسط ولا شك فى ان الوارد لايساوى المنصرف أما فى انكلترا وفى امريكا كما كان فى فرنسا قبل سنة ١٧٨٩ فانهم يستعملون عكس ذلك وعندهم تساوى الثمرة ماصرف او تربو عليه »

وبعد ذلك شرح لنا هذا المؤرخ المجيد الفرق بين طريقتنا وطريقة الانكليز الكسونيين فابان أن ليس لهؤلاء من المدارس الخصوصية الكثيرة ما لنا . وان التعليم عندهم لا يتلقى من الكتاب بل من الشىء نفسه فالمهندس مثلا يتكون فى المصنع لا فى المدرسة وهو ما يسمح لكل واحد أن يصل فى حرفته الى الحد الذى تصل اليه قدرته العقلية فيكون عاملا أو رئيس عمال اذا قعد به الذكاء عند

هذا القدر . وهو مهندس اذا قاده استعداده الى هذا الدرج . تلك هى الطريقة الديموقراطية المثلى وفيها الفائدة الصحيحة للأمة لا التى تجعل مستقبل المرء كله معلقاً على نتيجة امتحان يؤديه الطالب وهو فى التاسعة عشرة أو المتممة للعشرين مدة سويعات معدودة قال موسيو (تاين)

« يدخل التلميذ والعود اخضر فى المستشفى أو المعدن أو المصنع أومكتب المتشرع فيتعلم ويقضى زمن التمرين كما يفعل كاتب المحامى أو المبتدىء فى الحرفة عندنا ويكون قد تلقى أولا بعض دروس عامة مختصرة أوجدت فيه محيطاً تعشش فيه الملاحظات التى تعرض له من يوم دخوله ومع ذلك يجد كل يوم بجانبه دروساً فنية يختلف اليها فى أوقات الفراغ ويتمكن بما يستفيده منها من ترتيب تجاربه وتنسيقها كلما اكتسب شيئاً منها . هذا نظام تنمو فيه القدرة العلمية وتتقدم من نفسها بحسب ما تسمح به ملكات التلميذ وتسير فى طريق العمل المستقبل الذى اختار التمرن عليه منذ الآن وبهذه الواسطة يتمكن الشاب بسرعة من أن ينتزع من نفسه كل ما ملكت ويصير منذ الخامسة والعشرين وأحياناً قبل ذلك ان ساعدته كفائته ومادته منفذاً نافعاً بل مبدئاً مقداماً مندفعاً من ذاته فهو عجلة فى الآلة وهو أيضاً المحرك لها

أما فى فرنسا حيث سارت الطريقة الاخرى وصارت تقرب من طريقة أهل الصين فى كل جيل فان مجموع القوى الضائعة عظيم »

ثم استنتج ذلك الحكيم الكبير مما تقدم النتيجة الآتية التى تدل على مخالفة تربيتنا اللاتينية لمقتضيات الحياة مخالفة تعظم كل يوم فقال « امتد زمن التحضير النظرى فى ادوار التعليم الثلاثة الطفولية والصبا والشباب وقد زادت المواد على حد الطاقة والتلميذ جالس على المقعد وعيناه فى الكتاب انتظاراً ليوم الامتحان يوم ينال الشهادة يوم تتقرر الرتبة يوم تعطى الاجازة أو الامتياز لا انتظاراً لشىء آخر وقد أعدوا لذلك اردأ الوسائل فأخضعوا التلميذ لنظام تأباه الطبيعة وتنفر منه دواعى الاجتماع فأجلوا التمرين العملى وقصروا التلامذة

فى حجور المدارس وربوهم تربية جسمانية صناعية وشحنوا الذهن شحناً مادياً بالمواد وأجهدوا الفكرة وكلفوهم فوق المستطاع غير ملتفتين الى المستقبل ولا مهتمين بسن الرجولة ولا بالوظائف التى لابد للطالب من القيام بها اذا اكتمل ولا ناظرين الى الوجود الحقيقى الذى أضحى على وشك الهبوط اليه ولا بالجمع المتلاطم الذى يجب تطبيعه بطبائعه أو اخضاعه لاحكامه قبل الانطلاق فيه ولا بالمعترك الانسانى الذى يلزم المرء فيه أن يأخذ أهبته ويتقلد عدته ويتدرب ويتقوى ليتمكن من الكفاح ويبقى قائماً على قدميه . مدارسنا لاتكسب الشاب هذا المتاع على ضرورته وكونه أهم مايجب أن يقتنى . لاتكسبه ملكة حسن التمييز ولا مكنة الارادة ولا صلابة الاعصاب بل على الضد من ذلك بدلا من أن تجهزه وتهيئه فانها تضعفه وتبعد وجه الشبه بينه هو ومستقبله القريب المحتوم لذلك تراه غالباً يسقط فى أول خطوة يخطوها بين الناس ويكون فى بداية أمره كلما مد يده للعمل تولاه الكمد وأخذه الخزى زمانا طويلا وقد يصير كالاعرج ويبقى كذلك دائما . تجربة قاسية ذات خطر تضطرب فيها الاخلاق ويختل ميزان العقل ويخشى من البقاء هكذا على الدوام فقد انكشف الستار وولى الخيال وعظم اليأس واشتد الأسى[1]

---

(١) راجع تاين (النظام الحالى جزء ٢ صفحة ١٨٩٤) وهذه الصفحات هى آخر ما كتب تاين تقريباً وفيها خلاصة تجارب ذلك الحكيم العظيم ولكنى مع الاسف أرى أساتذة مدارسنا الذين لم يقيموا زمناً خارج فرنسا لايدركونها على ان التربية هى الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها التأثير فى نفس الأمة ومن سوء الحظ انه لايكاد أحد عندنا يدرك ان طريقة التعليم التى نجرى عليها هى من أشد عوامل الانحطاط العاجل وانها لاترفع قيمة نشئنا بل تحط منه وتفسده

ومما يفيد القراء أن يجمعوا بين ما كتب « تاين » والمشاهدات المتعلقة بالتربية فى أمريكا التى ذكرها موسيو « بول بورجيه » فى كتاب « بحر آخر » فقد لاحظ هو ايضاً ان تربيتنا لا تخرج الا اواسط محدودة كفاءتهم فلا اقدام

كأنى بالقراء يظنون انا قد بعدنا عن موضوعنا روح الاجتماع لكن نحن ما زلنا فيه لانه يجب علينا لمعرفة الافكار والمعتقدات التى تتولد الآن فى الجماعات ان نعرف كيف هيئت الارض التى تنبت فيها فالتعليم الذى يعطى الأمة هو المرآة التى يرى فيها مصيرها يوماً من الأيام والذى يبذل منه الآن لشبانا يدل على مستقبل مظلم جداً . كذلك نفوس الجماعات انما تتحسن أو تفسد من بعض الجهات بواسطة التربية والتعليم لهذا وجب أن نعرف كيف هيأت الطريقة المتبعة عندنا فى التعليم روح جماعاتنا وكيف انها بعد أن كانت لاهية بنفسها أو لا تشتغل بغيرها تحولت الى جيش كثيف من المتعضين مستعد لتنفيذ ما يشير به المتهوسون أهل التخيلات أو المتفيهقون تجار الكلام فالآن نحن نعلم أن الاشتراكيين والفوضويين يربون فى المدارس وان فيها تحضر أوقات انحطاط الامم اللاتينية عما قريب

الفصل الثانى

العوامل القريبة فى افكار الجماعات

(١) الصور والالفاظ والجمل — فيما للالفاظ والجمل من القوة السحرية — فى ان قوة الالفاظ مرتبطة بالصور التى تحدثها فى الخيال وغير متعلقة بمعناها الحقيقى —

على العمل من انفسهم ولا ارادة فيهم او فوضويين قال « وهما نموذجان تعسان للرجل المتمدن اذا خاب بانحطاط اخلاقه وعجزه او فقد الرشد فصار آلة هدم وتخريب » ثم جاء بمقارنة جديرة بالامعان بين مدارسنا الفرنساوية التى هى مصانع اتلاف والمدارس التى تربى الرجل للحياة تربية تفوق الوصف هناك يتبين الفرق بين الامم الديمقراطية الصحيحة والتى ليس لها من ذلك الا ما جاء على السنة خطبائها لا الذى رسخ فى عقولهم

فى أن تلك الصور تختلف باختلاف الازمان والامم — كثرة الالفاظ — امثلة على كثرة اختلاف معانى بعض الالفاظ المستعملة — الفائدة السياسية من اطلاق اسماء جديدة لمسميات قديمة متى صارت اسماؤها الاولى تحدث تأثيراً سيئاً فى نفوس الجماعات — اختلاف معانى الالفاظ الواحدة باختلاف الامم — اختلاف معنى ديموقراطية فى أوروبا وفى أمريكا

(٢) — فى الاوهام — فى اهمية الاوهام — فى أن الاوهام موجودة فى أساس كل مدينة — ضرورة الاوهام فى الاجتماع — فى ان الجماعات تفضل الوهم على الحقيقة

(٣) — التجارب — يجوز أن تولد التجارب وحدها فى نفوس الجماعات حقائق لازمة وتهدم أوهاماً ضارة — انما تؤثر التجارب اذا كثرت — ماتقتضيه التجارب اللازمة لاقناع الجماعات

(٤) — العقل — عدم تأثيره فى الجماعات — فى أنه لا يمكن التأثير فى الجماعات الا من طريق مشاعرها الغريزية — شأن المنطق فى التاريخ — فى الاسباب الخفية للحوادث الخارجة عن المعقول

—

فرغنا من البحث فى العوامل البعيدة التحضيرية التى تهيىء نفوس الجماعات لظهور بعض الاميال والافكار وبقى علينا أن نبحث فى العوامل التى تؤثر فيها مباشرة وسنرى فى الفصل الآتى كيف تستعمل هذه العوامل لتظهر آثارها كلها

وقد بحثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب فى مشاعر الجماعات وافكارها ومداركها ومما عرفناه يسهل علينا غالباً استنباط الوسائل التى تؤثر فيها فنحن نعرف مما تقدم أىّ العوامل يفعل فى تصوراتها ونعرف قوة المؤثرات وعدواها خصوصاً ما جاءها منها فى شكل صور ترتسم فى الخيال ولما كانت مناشىء المؤثرات مختلفة كانت العوامل التى لها قوة التأثير فى نفوس الجماعات تتنوع كثيراً تبعاً لها لهذا ينبغى الكلام فى كل واحد منها وليس البحث غير مفيد لان أحوال الجماعات

تشبه بعض الشبه طلاسم الارصاد عند القدماء فاما أن نتمكن من حل طلاسمها واما ان نستسلم لها فتأكلنا .

١

الصور والالفاظ والجمل

تبين عند البحث فى تصور الجماعات أنها تتأثر على الاخص بالصور وليست الصور ممكنة فى كل وقت لكن من السهل استحضارها فى الذهن بالحذق فى استعمال الالفاظ والجمل ومتى كان المستعمل لها بارعاً فلها قوة السحر عند معتقديه فى الزمن السابق فهى التى تثير فى نفوس الجماعات أشد صواعق الغضب وهى التى تسكنها اذا جاشت ولو جمعت عظام من ذهبوا ضحية الالفاظ والجمل لامكن أن يقام منها هرم أرفع من هرم خيوبس القديم

السر فى تأثير الالفاظ للصور التى تحضر فى الذهن بواسطتها وليس لذلك التأثير ارتباط بمعانيها الحقيقية بل الغالب ان أشدها تأثيراً ما كان معناه غير واضح تماما مثال ذلك كلمات ديموقراطية . اشتراكية . مساواة حرية . وهكذا مما أبهم معناه ويحتاج فى تحديده الى مؤلفات ضخمة والكل يسلم انها سلطانا ينساب فى النفوس كأنها اشتملت على حل المسائل الاجتماعية كلها وفيها تتمثل الاميال اللاشعورية على اختلافها والامل فى تحقيقها

لبعض الالفاظ والجمل سلطان لايضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ألفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعاً امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراماً وكثير يعتقدون ان فيها قوة الهية. ألفاظ وجمل تثير فى النفوس صوراً لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد فى قوتها الخفية فهى آلهة لا تدركها الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التى ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها

ولما كانت الصور التى تستحضرها الالفاظ مستقلة عن معانيها كانت مختلفة

باختلاف الأجيال والأمم واذا تحدث صيغها ولبعض الالفاظ صور تتلوها على الاثر كأن الكلمة منبه اذا تحرك برزت صورته

ومن الالفاظ ماهو مجرد عن قوة استحضار صورة ما ومنها ماتكون له تلك القوة أولا ثم تبلى بالاستعمال فتفقدها تماما وتصير أصواتا فارغة تنحصر فائدتها فى اعفاء المتكلم بها من التفكر والامعان ومن السهل على الانسان اذاحفظ فى صغره قليلا من الالفاظ وشيئاً من الجمل المصطلح عليها أن يجتاز الحياة بهامن دون احتياج الى اجهاد نفسه بالفكر فى أمر من أمور الدنيا

من تأمل فى لغة من اللغات وجد ان الالفاظ التى تتركب منها لاتتغير مع الزمان الا ببطء عظيم انما الذى يتغير على الدوام هو الصور التى تلازم تلك الالفاظ والمعانى التى تؤديها ومن هنا قلت فى بعض مؤلفاتى ان ترجمة لغة بتمامها ضرب من المستحيل خصوصا اذا كانت لغة أمة ميتة ونحن اذا ترجمنا الى الفرنساوية كلمة يونانية أو لاتينية أو سنسكريتية أو أردنا فهم كتاب بلغتنا منذ قرنين أو ثلاثة فذلك عبارة عن احلال الصور والمعانى المنتزعة من حياتنا الحاضرة محل صور ومعارف مغايرة لها بالمرة وكانت معروفة لأمم لانسبة بين حياتها وحياتنا. نقل رجال الثورة الفرنساوية عن الرومان وعن اليونان ألفاظا وظنوا انهم بذلك يقلدونهم فى نظاماتهم وهم انما أثبتوا لألفاظ قديمة معانى ماكانت لها أبداً فأى شبه بين نظامات الاغريق ونظاماتنا وان تقابلت الاسماء ألسنا نعلم ان كلمة جمهورية كانت تدل عندهم على نظام سداه الشرفاء ولحمته الشرفاء اجتمع فيه أفراد من صغار المستبدين وتحكموا فى قطيع من العبيد المسخرين . تلك جمعيات أشراف قروية كان الرق قوامها ولولا الاسترقاق ماعاشت لحظة واحدة

وتلك كلمة الحرية أى شبه بين معناها الآن عندنا ومعناها قديماً عند قوم لم يمر بخاطر واحد منهم طائف الحرية فى الافكار أيام كان اكبر الجرائم النادرة الوقوع تطرق البحث الى الآلهة أو القوانين أو العادات فى مدينة من المدن فكان معنى وطن عند أهل اثينا أو أهل اسبرطة تمجيد المدينة لاالبلاد اليونانية

لأنها كانت مدائن متباغضة وفى حرب مستديم ولم يكن لهذا اللفظ معنى عند أهل الغلوا الاقدمين وهم قبائل متنافرة وأجناس متغايرة وأهل لغات متنوعة وديانات شتى وقهرهم قيصر بدون عناء اذ كان له من بينهم حلفاء على الدوام وروما هى التى أوجدت وطن الغلوى بايجادها الوحدة السياسية والدينية فيها مالنا ولذلك الزمن البعيد فمن قرنين اثنين لم يكن للفظ الوطن فى نفوس الامراء الفرنساويين ما تفهم نحن منه الآن اذ كانوا يحاربون الاجنبى على ملكهم كما فعل البرنس كونديه ولا فى نفوس المهاجرين الذين كانوا يعتقدون أن الشرف وحفظ العهد يقضيان عليهم بمحاربة فرنسا وكانوا يعملون بهذا الاعتقاد لأن نظام حكم الشرفاء كان يربط التابع بالمتبوع لابالبلاد التى هو منها فحيثما كان المتبوع يوجد الوطن

وما اكثر الالفاظ التى تغير معناها تغيراً كلياً من جيل الى جيل ولم نعد ندرك معانيها الاولى الا مع الجهد والمشقة ولقد أصاب القائل بوجوب الاطلاع على كتب كثيرة للوقوف على ماكان يفهمه آباء اجدادنا من بعض الالفاظ مثل ملك وعائلة ملكية فما بالك بغيرها مما له معنى دقيق

نتج من هذا أن معانى الالفاظ غير ثابتة وانها عرضية أى وقتية تتغير بتغير الاجيال وتختلف باختلاف الامم فاذا اردنا أن نؤثر فى الجماعات لزمنا أن نعرف معنى الالفاظ عندها وقت مخاطبتها لامعناها القديم ولا الذى يفهمه منها من يختلف معها فى الفكر والمعقول

ومن أجل هذا متى تمت الانقلابات السياسية واستقرت معتقدات مكان أخرى وتمكن بذلك تفور الجماعات من الصور التى تحضرها من بعض الالفاظ وجب على رجال السياسة الجديرين بهذا الاسم أن يسارعوا الى تغيير تلك الالفاظ من دون أن يتعرضوا لتغيير المسميات لأن هذه مرتبطة بمزاج القوم الموروث ارتباطاً ليس من السهل تغييره

وقد لاحظ توكفيل منذ بعيد وكان نقاداً أن حيل أعمال القنصلية

والامبراطورية (فى فرنسا) كان الباس القسم الاكبر من النظامات القديمة لباساً جديداً من الالفاظ أعنى الاعتياض من الفاظ أصبحت تؤدى فى الاذهان صوراً مكروهة بألفاظ لا تثير فيها هذا التأثر لحدتها فسموا العوائد الشخصية ضرائب عقارية والعونة ضرائب غير مقررة وهكذا

فمن أهم وظائف سواس الامم تسمية المسميات التى صارت الجماعات لاتطيق سماع اسمائها المعروفة باسماء مقبولة أو على الاقل لا مقبولة ولا مكروهة لأن قوة الالفاظ شديدة حتى انه يكفى تسمية أشد الاشياء كراهة للجماعات بأسماء مختارة لترضى بها ومن هنا لاحظ (تاين) أن اليعقوبيين تمكنوا باسم الحرية والمساواة وهما كلمتان محبوبتان فى زمانهما عند الناس « من اقامة استبداد أحق به بلاد الداهومية وتأليف محكمة شبيهة بمحكمة الاضطهاد واحداث مذابح فى الناس شبيهة بمذابح بلاد المكسيك »

فالحكام كالمحامين يرجع فنهم الى اختيار الالفاظ وحسن استعمالها وصعوبة هذا الفن ناشئة من كون معنى اللفظ الواحد يختلف غالباً باختلاف طبقات الامة الواحدة اختلافا كبيراً فهى وان استعملت الالفاظ بذاتها لا تتكلم مع ذلك بلغة واحدة

رأينا فى الامثلة التى اتينا عليها أن الزمان هو اهم العوامل فى تغيير معانى الالفاظ وكذلك تختلف المعانى فى الزمن الواحد اختلافا كلياً عند الامم التى اختلفت فى الجنس وان تماثلت فى المدنية ومن المتعذر ادراك ذلك لمن لم يسبق له تطواف طويل فى الامم فلا أطيل الكلام فيه ولكنى أشير الى أن اختلاف المعانى واتحاد الالفاظ عند الامم المختلفة يكون بالاخص فيما يكثر استعماله منها على لسان الجماعات مثل لفظى ديموقراطية واشتراكية اللذين شاع استعمالها الآن

الافكار والصور التى تتحصل من هذين اللفظين تختلف اختلافا بينا عند الجنسين اللاتينى والانكليزى السكسونى فمعنى الديموقراطية عند الاول انزواء ارادة الفرد واقدامه على العمل من نفسه امام ارادة المجموع وهمته والمجموع

تشخصه الحكومة[١] فالحكومة هى المكافة بادارة كل شيء وحصر كل شيء واحتكار كل شيء وصنع كل شيء وهى التى تلجأ اليها دائماً الاحزاب بلااستثناء من أحرار الى اشتراكيين الى ماركسيين وعلى الضد من ذلك يفهم الانكليزى السكسونى وبالاخص الامريكى من كلمة ديموقراطية نمو ارادة الفرد واقدامه الذاتى الى الحد الاقصى وانزواء الحكومة بقدر ما أمكن فلا تكلف بعدالشرطة والجيش والعلاقات السياسية بشيء حتى التعليم وعليه فاللفظ الواحد يفيد فى بلد جمود ارادة الفرد وسكون اقدامه الذاتى واستعلاء كلمة الحكومة ويفيد فى بلد آخر انزواء هذه وارتفاع صوت الاول[٢]

٢

الاوهام

خضعت الجماعات منذ بزغ فجر المدنية لتأثير الاوهام فأقامت لموجديها أكثر التماثيل والهياكل والمعابد وما من مدنية وما من حضارة تبلج صبحها فوق ظهر الارض الا وكانت تلك الملوك الهائلة فى طليعة جيوشها أريد المعتقدات الدينية قديماً والسياسية والاجتماعية فى هذه الايام . هى التى شيدت هياكل الكلدان ومصر وأقامت المساجد والبيع فى القرون الوسطى وهى التى قلبت القارة الاوربية من الرأس الى القدم منذ مائة عام وخاتمها مطبوع فى جبين كل ما أبرزه العقل من المستحدثات الفنية أو السياسية أو الاجتماعية. يهدمها الانسان أحيانا ولكنه يعانى فى ذلك هول الانقلاب العنيس ثم هو محكوم عليه دائماً

---

(١) الحكومة هنا عبارة عن مجموع السلطات التى بيدها زمام الامر فى البلاد

(٢) شرحت القول باسهاب فى كتابى (ناموس تطور الأمم النفسى) على الفرق بين الديموقراطية عند الامم اللاتينية والامم السكسونية وجاءت نتيجة بحث موسيو (بول بورجيه) فى كتابه (بحر اخر) مطابقة على التقريب لما ذكرت وان كان بحثه مستقلا بذاته

أن يقيمها من جديد فلولا هى ماخرج من بربرته الاولى ولولا هى لراح مسرعا يتخبط فى أودية الخشونة والتوحش نعم هى خيالات باطلة وهى من نبات الاحلام ولكنها هى التى ساقت الامم الى ايجاد مافى الفنون من رفيع وجميل وما فى الحضارة من عظيم وجليل

قال (دانيال لوزيار) لو أبيد مافى دور العاديات وما فى المكتبات العمومية وكسرت فوق بلاط مماشيها جميع التحف والاثار الفخمة التى أبدعتها الفنون والاديان مابقى فى العالم شىء مما ولدته الاحلام وما كانت الآلهة والابطال ولا الشعراء الا لتحدث فى النفوس شيئاً من الرجاء وبعضاً من الخيال اذ لا حياة للناس بغير الأمل والرجاء . حمل العلم هذه الامانة الثقيلة خمسين عاما ثم تغلبت عليه قوة الخيال لانه أصبح غير قادر على الوعد بادائها كلها عاجزاً عن الكذب الى النهاية

اشتد ولع فلاسفة القرن الماضى بهدم الاوهام الدينية والسياسية والاجتماعية التى عاش بها آباؤنا قرونا وأجيالا فلما ظهروا عليها كانوا قد سدوا أيضاً منابع الرجاء وأغلقوا باب احتمال القضاء وبرزت من خلف الخيال الذى خنقوه قوى الطبيعة العمياء الصماء التى لا تشفق على الضعفاء ولا تحنو على التعساء

سارت الفلسفة الى الامام شوطا بعيداً ولكنها مع تقدمها لم تهيئ للجماعات خيالا يلذ لها والجماعات لاغنى لها عن الاوهام لذلك اندفعت وراء غريزتها وذهبت الى تجار البلاغة الذين يبيعونها تجارة حاضرة مثلها كمثل الحشرة تدب حيث يكون الضياء . ان الحقيقة لم تكن أبداً العامل الاكبر فى تطور الامم ولكنه الباطل على الدوام واذا بحثت عن السبب فى قوة مذهب الاشتراكية فى عصرنا هذا وجدته ما اشتمل عليه من الخيال الذى لا يزال حيا فى العقول فهو يعظم ويتجسم مع تزاحم أنوار العلم التى تبرهن على فساده ذلك لان قوته آتية من جهل دعاته بحقائق الاشياء جهلا كافيا يجرئهم على وعد الناس بالسعادة فى الحياة والآن أصبح هذا الوهم سائداً فوق اطلال الزمن الماضى وله الملك آجلا فما كانت

الجماعات فى ظمأ الى الحقيقة طول حياتها واذا تبدت امامها وكانت تغضبها أعرضت ونأت وراحت تعبد الاوهام التى ترضى الأمرة عليها لمن أضلها والويل منها لمن هداها

٣

التجارب

التجارب هى على التقريب الوسيلة الفعالة لتقرير الحقيقة فى نفوس الجماعات وازالة الاوهام التى عظم ضررها انما ينبغى أن تكون عامة ما أمكن وان تتكرر اذ تجارب جيل لا تؤثر غالبا فى الذى يليه ولذلك لا تصلح الحوادث التاريخية للدليل بل تصلح لبيان انه يجب تكرار التجارب من جيل الى جيل ليكون بعض الاثر وليتوصل بها الى زعزعة الوهم المتأصل فى نفوس الجماعة

ومن المحقق ان مؤرخى العصور الآتية سيكثرون من ذكر حوادث هذا القرن والذى تقدمه لاحتوائها على تجارب لا مثيل لها لان الناس لم يباشروا نظائرها فى زمن الازمان

واكبر هذه التجارب ثورتنا الفرنساوية لانها تدل على اننا احتجنا الى قتل عشرة ملايين من الرجال واضرام نار الفتن والقلاقل فى اوروبا كلها مدى عشرين عاما لنعرف ان الامة لا تخلق خلقا جديداً بارشاد العقل وحده ووقمنا بتجربتين منهكتين فى خمسين عاما لنثبت من طريق التجربة ان القياصرة تكلف الامم التى تمجدها كلفة باهظة ومع انهما كانتا مشرقتين بالحجة على ما أرادوا يظهر انهما لم تعتبرا كافيتين للاقناع والاولى اقتضت بضعة ملايين من النفوس وغارة أجنبية على البلاد والثانية أدت الى سلخ أقليم عنها وضرورة ايجاد جيش مستديم مع ذلك وكانت الثالثة على الابواب من عهد قريب وهى واقعة لا محالة يوما من الايام وبالجملة كان لا بد من تلك الحرب الهائلة التى استنزفت ثروتنا لكى تقلع الامة كلها عن الوهم بأن جيش الاماان العرمرم لم يكن الا عبارة عن حرس ملى[1]

(١) كان رأى العامة فى هذا الموضوع مبنياً على اجتماع النقيضين فى ذهنها

لا خوف منه كما كانوا يوحون به عندنا منذ ثلاثين عاما

ولو أردنا أن نبرهن للأمم التى تعمل بمذهب حماية التجارة الوطنية لتقييد التجارة الاجنبية للزمنا القيام بتجارب ضارة بثروتنا مدة عشرين عاما ومن السهل الاكثار من الامثلة على ماتقدم

٤

العقل

لولا الحاجة الى بيان أن لا تأثير للعقل فى الجماعات ما احتجنا الى ذكره بين العوامل التى تؤثر فيها لأنا قدمنا أن البراهين والادلة لا تأخذ من نفوس الجماعات وانها لا تعقل الا بالمشابهات الرديئة ولهذا فأن الخطباء الذين عرفوا كيف تتأثر انما يخاطبون شعورها دون العقل لانه لا سلطان لقواعد المنطق عليها [1] فلا جل اقناع الجماعة ينبغى الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها

= لما فصلناه من قبل فكان حرسنا الملى فى ذلك الزمن مؤلفاً من صغار الباعة أهل الدعة الذين لا يعرفون للنظام معنى ولا يمكن لذلك الاعتداد بهم فكان كل مسمى باسم كهذا يرتسم فى الذهن على الصورة التى عرفها من قبل ولا يتوجس الناس منه خيفة وكان خطأ الجماعات متعديا الى قوادها كما يقع ذلك غالباً بالنسبة للافكار العامة فقد رأينا موسيو (تيرس) يقول مايأتى ضمن خطابه الذى ألقاه على مجلس النواب فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٦٧ ونقله موسيو أوليفيه فى كتاب نشره حديثاً وكان ذلك القطب السياسى يتبع دائما أفكار الجماعة الا انه لم يسبقهم فى فكر أبداً قال ناقلا « ليس لبروسيا غير جيشها العامل المساوى لجيشنا على التقريب الا حرس ملى يشبه الحرس الذى كان لنا وعليه لا أهمية له » وهى رواية تبلغ صحتها مابلغه رأى ذلك السياسى فى ضعف مستقبل السكك الحديدية .

(١) ترجع ملاحظاتى فى فن التأثير فى الجموع وضعف قواعد المنطق فى هذا الموضوع الى زمن حصار « باريس » رأيت ذات يوم أناسا يسوقون أحد قواد

ثم يحاول الخطيب تعديلها باستعمال مقارنات بسيطة عادية تشخص أمامها صوراً مؤثرة وينبغى أن يكون مقتدراً على الرجوع القهقرى متى وجد المقتضى وان يتفرس فى كل لحظة أثر كلامه فى نفس سامعه حتى يغير منه كلما مست الحاجة وهذه الضرورة التى تلجىء الخطيب الى سرعة تغيير الكلام بحسب الاثر الحاصل فى نفس السامع هى التى تدلنا على ضعف الخطابة بالكلام المحضر من قبل لأن الخطيب يتبع فى هذه الحالة سلسلة افكاره لا حركة فكر سامعيه فلا يكون لكلامه أقل تأثير عندهم

أما المناطقة فلانهم تعودوا الاقتناع بالادلة المتسلسلة الدامغة لايمكنهم الخروج عن عادتهم هذه فى مخاطبة الجماعات لذلك يدهشهم على الدوام عدم تأثير استدلالهم قال بعض هؤلاء المنطقيين « ان للقياس المنطقى اعنى الجمع بين الشىء ونظيره فى الاستدلال نتيجة لازمة لا تتخلف عنه وهذا اللزوم يقتضى التسليم حتى من المادة لو أن فيها قدرة على أن تتمثل النظائر » وهو مسلم غير أنه لا فرق بين

=الجيش العظام الى سراى اللوفر حيث مقر الحكومة والناس أكداس من حوله يزمجرون ويتميزون غيظاً وهم يتهمونه بانه كان يأخذ رسم أحد المعاقل ليبيعه للبروسيانيين فلما وصلوا به خرج أحد اعضاء الحكومة وكان خطيباً ذائع الصيت ليخطب فى الناس وهم ينادون الموت الموت عاجلا وكنت انتظر منه أن يبرهن لهم على فساد التهمة بقوله أن الفريق المتهم هو أحد المهندسين الذين أقاموا الحصون وان رسومها تباع فى المدينة عند جميع باعة الكتب غير انى بهت ـ كنت شابا فى ذلك الحين ـ اذ سمعته على نقيض ما ظننت يقول وهو يتقدم نحو الجموع « سيأخذ منه العدل أخذا لا رحمة فيه فاتركوا حكومة الدفاع عن الامة [1] تتم التحقيق الذى بدأتموه وسنزجه فى السجن حتى حين » قال هذا فرأيت الثورة قد سكنت وتفرق الجمع ولم يمض ربع ساعة الا والفريق فى داره ولو انه خاطبهم بما جال بخاطرى من الادلة المنطقية التى اعتقدتها دامغة لمزقوه اربا

---

(١) هو اسم الحكومة فى ذلك الحين

الجماعة والمادة فى عدم ادراك النظائر بل فى عدم القدرة على سماعها ومن لم يصدق فليجرب اقناع الهمجى أو المتوحش أو الصبى بالحجة العقلية والدليل المنطقى وهو يقتنع بضعف تأثير هذه الطريقة فى اقناعهم

على انه لا داعى للتجربة فى الهمجى لمعرفة عدم تأثير الادلة العقلية متى عارضت الشعور ويكفينا ان نذكركم من القرون امسكت الاوهام الدينية بالعقول على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الابتدائية وان اكبر الناس عقلا وأسماهم فكراً انوا تحت حكمها الفى عام وبقى الحال هكذا حتى جاء هذا الزمان وامكن البحث فى صحتها ولقد كان اصحاب العقول النيرة كثيرين فى القرون الوسطى وزمن النهضة الفكرية ومع ذلك ليس منهم من هدته الحجة وارشده الدليل الى ما كان فى الاوهام التى استولت على قلبه من الهزء والشطط أو شك يوماً فى صحة اساءة الشيطان أو فى ضرورة احراق الساحرين

رب سائل أمما يوجب الاسف ان العقل ليس هو الذى يهدى الجموع على الدوام . نحن لا يسعنا أن نقول به بل نرى انه لو كان الهدى للعقل ما اندفعت الانسانية فى سبل المدنية والحضارة بالهمة التى اوجدتها الخيالات والاوهام . فليس لنا غنى عن الاوهام لأنها نبات الغرائز

كل شعب يحمل فى كيانه العقلى نواميس مآله فى الوجود والظاهر انه يسير محكوماً بتلك النواميس وانه ينقاد لحكمها بفطرة لا مقدور له فيها حتى فى نزعاته التى يرى انها خارجة عن كل معقول كذلك يظهر أحيانا ان الامم مدفوعة بقوى خفية مثل التى تجعل بذرة البلوط شجرة كأمها أو التى تدوربها (ذوات الاذناب) فى دائرتها

على انه لا يسعنا أن نعرف الا قليلا من تلك القوى وذلك بالبحث عنها فى حركة تطور الأمة العمومية لا فى الحوادث الفردية التى يخال انها سبب ذلك التطور اذ لو قصرنا النظر على هذه الحوادث لظهر أن التاريخ يتكون من مصادفات غير معقولة بالمرة . فلقد كان مما لا يصدقه العقل ان نجاراً جاهلا هو

« غاليليه » (١) يصير مدة الفى عام كأله جلت قدرته يؤسس باسمه اهم اركان المدنيات فى الدنيا وكان مما لا يصدقه العقل ان عصابات من العرب تندلع من صحاريها وتبسط فتوحاتها على القسم الاكبر من الدنيا القديمة التى عرفها اليونان والرومان وتختط مملكة فاقت ضخامتها مملكة الاسكندر . كذلك كان مما لا يتصوره العقل أن يقوم ضابط صغير فى أوروبا التى لها قدم راسخة فى التاريخ وأهلها طبقات منظمة بعضها فوق بعض ويتمكن من السيادة على جميع أولئك الملوك وتلك الامم

اذن لندع العقل للحكماء ولا نطلبن منه أن يتداخل كثيرا فى حكم الامم فما بالعقل بل على الرغم منه فى غالب الاحيان تولدت مشاعر مثل الشرف وانكار الذات والايمان بالدين وحب المجد والوطن وهى الصفات التى كانت ولا تزال أقوى دعائم المدنيات كلها

الفصل الثالث

قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

(١) قواد الجماعات ـ حاجة الجماعات الفطرية الى قائد تطيعه ـ روح القواد ـ القواد هم الذين يمكنهم وحدهم ايجاد الاعتقاد ووضع نظام للجماعات ـ استبداد القواد نتيجة لازمة ـ أنواع القواد ـ شأن الارادة

(٢) وسائل التأثير التى يستعملها القواد ـ التوكيد والتكرار والعدوى ـ تأثير كل واحد من هذه العوامل ـ كيف ترتقى العدوى فى الأمة من الطبقة السفلى الى الطبقة العليا ـ فى ان الفكر يكون للعامة فلا يلبث أن يصير عاما

(٣) النفوذ ـ تعريف النفوذ وأنواعه ـ النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى ـ أمثلة متنوعة ـ كيف يزول النفوذ

---

(١) كذا فى الاصل لانه ولد سنة ١٥٦٤ وتوفى سنة ١٦٤٢

نحن الآن نعرف تركيب الجماعات الفكرى والعوامل التى تؤثر فى نفوسها بقى علينا أن نذكر كيفية استعمال هذه العوامل ومن الذى يمكنه استعمالها استعمالا مفيدا

١

قواد الجماعات

ما اجتمع عدد من الاحياء سواء كان من الحيوان أو من بنى الانسان الا جعل له بمقتضى الفطرة رئيساً

والرئيس فى الجماعات البشرية عبارة عن قائد فى الغالب الا ان له بذلك شأنا كبيرا تجتمع الافكار وتتحد حول ارادته وهو الركن الاول الذى يقوم به نظام وحدة الجماعات وبهيئها لأن تصير طائفة خاصة

والعادة ان القائد يكون قبل ذلك مقوداً أعنى انه كان مسحوراً بالفكرة التى صار هو الداعى اليها حتى استولت عليه استيلاء لا يرى معه الا ما كان منها وان كل ما خالفها وهم وباطل كما جرى للزعيم (روبسبير) أسكرته افكار (روسو) فقام يدعو اليها . واستعمل الاضطهاد وسيلة لنشرها.

ليس القواد غالباً من أهل الرأى والحصافة بل هم من أهل العمل والاقدام وهم قليلو التبصر . على انه ليس فى قدرتهم أن يكونوا بصراء . لأن التأمل يؤدى غالباً الى الشك ثم الى السكون . وهم يخرجون عادة من بين ذوى الاعصاب المريضة المتهوسين الذين اضطربت قواهم العقلية الى النصف وأمسوا على شفا جرف الجنون . لا ينفع الدليل على فساد ما اعتقدوا كيفما كان معتقدهم باطلا . ولا تثنيهم حجة عن طلب ما قصدوا بالغاً منه الحطل ما بلغ . ولا يؤثر فيهم الاحتقار ولا الاضطهاد بل ذلك يزيدهم تهوساً وعناداً . حتى انهم يفقدون غريزة المحافظة على النفس فلا يبتغون فى الغالب أجراً على عملهم الا أن يكونوا من ضحاياه . تزيد شدة اعتقادهم فى قوة تأثير أقوالهم . والجموع تصغى دائما الى قول ذى الارادة

القوية الذى يعرف كيف يتسلط عليها ومتى صار الناس جماعة فقدوا ارادتهم والتفوا كلهم حول من كان له شيء منها

وجد القواد فى الامم على الدوام . غير أنهم ليسوا جميعاً من أهل الاعتقاد الصادق الذى يصير به المرء رسولا فى قومه . بل هم فى الغالب قوالون سوفسطائيون لا يسعون الا وراء منافعهم الذاتية فيتملقون ذوى المشاعر السافلة ليكتسبوا رضاهم وقد يكون النفوذ الذى ينالونه بهذه الوسائل كبيراً جداً الا أنه سريع الزوال . أما أصحاب المعتقدات الصحيحة الذين تمكنوا من نفوس الجماعات وحركوها مثل (بطرس الراهب) و (لوثر) و (سافونارول) ورجال الثورة الفرنساوية وغيرهم فانهم لم يتمكنوا من خلب العقول واجتذاب الارواح الا بعد أن سكروا بخمر المذهب الذى اعتقدوه . وبذلك توصلوا الى توليد تلك القوة الهائلة فى النفوس وهى التصديق الذى يجعل المرء عبداً لخياله .

كان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد فى النفوس لافرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً . ولا أن يكون محله عملا أو انساناً أو رأيا بهذا كان تأثيرهم عظيما جداً . لأن الايمان اكبر قوة فى تصرف الانسان . وقد صدق الانجيل فى قوله أنه يزحزح الجبال عن مواضعها . فمن كان مؤمنا زادت قوته عشر أمثالها . والذى قام بأكبر حوادث التاريخ أفراد من الضعفاء المؤمنين الذين لم يكن لهم من الحول الا الايمان . وليس المستبدّون ولا الفلاسفة ولا أهل البأس على الاخص هم الذين أقاموا الاديان الكبر التى سادت على الدنيا . واختطوا الممالك الشاسعة التى امتدت فوق السطحين

غير أن الامثلة التى ذكرناها تختص بقواد عظام يندر ظهورهم فمن السهل على التاريخ حصرهم . وهم رأس سلسلة تتدلى من أولئك القواد العظام الى العامل الذى يقف فى قهوة أطبق الدخان فى سمائها ويسترعى اسماع اخوته وهو يلوك صيغاً حفظها من دون أن يدرك معانيها . ولكنه يؤكد أن فى العمل بها تحقيق جميع الأمانى والآمال

لا يلبث الانسان أن يقع تحت حكم قائد يتبعه كلما خرج عن العزلة الى الجماعة ذلك أمر واقع فى جميع الطبقات ارقاها وادناها . فاما أفراد طبقة العامة فأن الواحد منهم متى خرج عن حرفته أو مهنته لا تجد عنده فكراً واضحاً فى امر من الامور . وكلهم غير كفء لقيادة ذاته . ومرشدهم هو القائد وربما امكن الاستعاضة عنه بتلك الصحف الدورية التى تصنع لقرائها افكاراً وتحصل لهم جملا مصوغة تغنيهم عن التفكير الا أن البدل لا يقوم مقام الاصل تماماً

من لوازم سلطة القواد أن تكون مستبدة على ان استبدادهم هو علة سيادتهم وقد لوحظ كثيراً ان فيهم مقدرة على اطاعة طبقات العمال الذين هم اشد عربدة واصعب مراساً مع تجرد أولئك القواد من كل شيء يستندون عليه فى سلطتهم فهم يحددون ساعات العمل ويقررون الاعتصابات وينفذونها بميقات ويفضونها بميقات

قواد هذه الايام صائرون الى الحلول مكان السلطات الحاكمة كلما تركت هى الناس يبحثون فيها ويضعفون من نفوذها . وتعسف المولى الجديد وظلمه يجعل الجماعة تطيعه بسهولة اكثر مما اطاعت حكوماتها . واذا حدث حادث اختفى بسببه القائد ولم يول الخلف على الاثر تصبح الجماعة جمهوراً مفككة الاجزاء ولا قدرة فيها . فلما اعتصب عمال شركة الامنيبوس اعتصابهم الاخير فى باريس وقبض على الرئيسين اللذين كانا القائدين بطل الاعتصاب لساعته . انما الحاجة التى يشتد شعور الجماعة بها هى الخضوع لا الحرية وقد بلغ منها الظمأ الى الطاعة انها تخضع بفطرتها لكل من ادعى السيادة عليها

تنقسم القواد الى فريقين ممتازين فقواد أولو عزم وارادة قوية لكنها وقتية وقواد ذوو ارادة جمعت بين القوة والدوام وهؤلاء قليلون والفريق الاول أصحاب حدة ونزق وشجاعة وأقدام . وهم على الأخص نافعون فى تنفيذ ما دبر أو كسب الجموع بلا خوف من الخطر وفى جعل الجبان بطلا مغواراً ذلك مثل (ناى) و (مورات) زمن الامبراطورية الاولى ومثل (غاريبالدى) فى عصرنا

هذا فانه كان رجلا هجوما لا ذكاء فيه لكن ذا عزم ومضاء . وبذلك تمكن مع نفر قليل من الاستيلاء على مملكة (نابولى) القديمة على رغم الجيش المنظم الذى كان يحميها

عزيمة أولئك القواد على قوتها فلما تبقى بعد زوال السبب الذى دعا اليها . وكثيراً ما يبرهن الذين تجملوا بها على ضعف مدهش متى عادوا الى حياتهم الاعتيادية كالذين ذكرناهم فتراهم لا يستطيعون التصرف فى أصغر الحوادث مع كونهم كانوا ماهرين فى تصريف غيرهم . أولئك قواد لا يمكنهم القيام بوظائفهم الا اذا كانوا أنفسهم مقودين وكان لهم مهيج على الدوام واستولت عليهم يد أو فكر من الافكار وساروا فى طريق مرسوم من قبل

أما الفريق الثانى من القواد وهم ذوو الارادة الثابتة فان تأثيرهم أعظم بكثير وان كانوا أقل ظهوراً فى الشكل وهم الذين نبغ من بينهم أصحاب الاعمال الكبيرة كالقديس (بولص) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) و(كريستوف كولومب) و (دولسبس) . وسواء كان قواد هذا الفريق من الاذكياء أو الاغبياء لهم الدنيا أبد الآبدين لان الارادة الثابتة التى اتصفوا بها ملكة نادرة الوجود لكنها قوية يخضع لها كل شىء الا ان الناس لا يدركون دائما ما عسى ان يكون من وراء الارادة القوية المستمرة فالذى يكون من ورائها هو انه لاشىء يقف أمامها حتى الطبيعة حتى الآلهة حتى الرجال

وأقرب الامثال على ما تأتى به الادارة القوية الثابتة هو ذلك الرجل العظيم الذى فصل الدينين . وأنجز عملا قصرت عنه همة اكبر الملوك منذ ثلاثة آلاف عام . نعم لم ينجح بعد ذلك فى عمل يضارع هذا العمل . لكن الشيخوخة كانت قد أدركته وكل شىء ينطفىء أمامها حتى الارادة

من أراد بيان ما تأتى به الارادة وحدها فما عليه الا أن يذكر العقبات التى ذللت لفتح قناة السويس . وقد لخص الدكتور (كزاليس) وهو من شهود الحال فى أسطر تسحر الالباب تاريخ ذلك العمل المجيد نقلا عن صاحبه الذى خلد التاريخ

ذكره فقال « كان ـ يعنى دلـبس ـ يقص علينا حيناً فحيناً حوادث القناة مرحلة بعد أخرى . فحكى لنا مالاقى من الصعاب التى ذللها . وكيف جعـل المستحيل ممكناً وروى المقاومات التى صـادفته . والتحزبات التى اعترضته واليأس الذى كان قد استولى عليه قلبه والخيبة التى كان يؤوب بهـا وكيف ان ذلك كله لم يكن ليثنى عزيمتـه . ولا ليضعف من ارادته . وكان يذكر انكلترا وهى تحاربه وتحمل عليه الحملة بعد الحملة . وفرنسا ومصر مترددتان والعميد الفرنساوى أشد الجميع معارضة فى البدء بالعمل . حتى انه لما رأى عدم الامتثال أنحى على العمال بالعطش فسعى فمنع عنهم الماء الفرات . ولا تنسى ان ناظر البحرية وفريق المهندسين والناس من رجل الجد وذى الخبرة وصاحب العلم كلهم خصماء . وكلهم مقتنعون علما بأن الخيبة محتمة يحسبون سيرها ويحددون يوم حلولها كما ينبأ بالكسوف أو الخسوف »

ان الكتاب الذى يضم سيرة أولئك القواد العظام لا يكون فيه عدد كثير من الاسماء لكن تلك الاسماء هى التى كانت على هامة أكبر حوادث الحضارة والتاريخ

٢

وسائل القواد فى التأثير

التوكيد والتكرار والعدوى

اذا مست الحاجة الى قيادة جماعة وحملها على عمل من الاعمال كاحراق قصر أو الاستماتة فى الدفاع عن حصن أو معقل وجب التأثير فيهـا بخواطر سريعة . والأمثولة أشـد ذلك تأثيراً فى نفوسها الا انه يجب أن تكون هناك أحوال جعلتها مستعدة للتأثر وان يكون من يريد تحريكها حائزاً للنفوذ وسيأتى الكلام فيه

لكن اذا كان الغرض بث أفكار فى عقولها أو معتقدات فى نفوسها كالافكار الاشتراكية العصرية فالوسائل غير ما تقدم . وأخص مايستعمله القواد منها ثلاث

التوكيد . والتكرار . والعدوى . ولذلك تأثير بطىء الا انه متى انبث فيها المطلوب لزمها زمنا طويلا

فأما التوكيد فانه من أهم العوامل لبث الفكر فى نفوس الجماعات متى كان بسيطا خالياً من التعقل والدليل . وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة الحجة والتقرير كان عظيم التأثير . هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسى وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالنشر عنها .

الا أن قيمة التوكيد هى بدوام تكراره بالالفاظ عينها ما أمكن ذلك . وأظن أن نابوليون هو القائل بأن أهم صيغ البيان التكرار فاذا تكرر الشىء رسخ فى الاذهان رسوخا تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة .

للتكرار تأثير فى عقول المستنيرين وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى . والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب افعال الانسان . فاذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر . وهذا هو السر فى تأثير الاعلانات العجيب . يقرأ الواحد مائة مرة ان احسن الحلوى ما كان من صنع زيد فيخيل اليه من التكرار انه سمع ذلك من مصادر شتى وينتهى باعتقاد صحة الخبر . ويقرأ الف مرة أن دقيق فلان شفى أعاظم القوم من مرض عضال فيميل الى التجربة أن اصيب بمثل المرض المذكور . ويقرأ كل يوم فى الصحف أن زيداً من الانذال وعمراً من الفضلاء فينتهى باعتقاد ذلك الا اذا كان يقرأ دائماً فى جريدة أخرى ما يخالفه فأنه لا يقل التكرار الا التكرار

ومتى كثر تكرار أمر واجمع المكررون عليه تولد من عملهم تيار فكرى يتلوه ذلك المؤثر العظيم اى العدوى كما وقع ذلك فى بعض المشروعات المالية الشهيرة التى تمكن اصحابها بثروتهم من كسب كل قادر على معونتهم لأن للافكار والمشاعر والتأثرات والمعتقدات عدوى فى الجماعات تماثل فى قوتها عدوى

المكروبات وذلك امر طبيعى لوجوده فى الحيوانات متى اجتمعت فالفرس يقبع فى مربطه فتفعل فعله الخيل كلها . وتجزع الشاة أو تضطرب فى حركتها فتفعل الغنم مثلها . كذلك لحركات الانسان فى الجماعة عدوى سريعة جداً وهذا هو السبب فى سرعة انزعاج الكل لفزع الواحد بينهم . حتى أن اختلال القوى العقلية معد . وكثير ماهم اطباء المجانين الذين جنوا . وشاهد بعضهم نوعا من الجنون تنتقل عدواه من الانسان الى الحيوان

ولا يجب فى العدوى وجود الافراد الكثيرين فى مكان واحد بل يجوز أن تحصل عن بعد من الحوادث التى تتخذ لاجلها وجهة افكار المتأثرين بها فتجعلهم بذلك كالجماعة لاسيما اذا كانت النفوس مهيأة من قبل باحد العوامل البعيدة التى مرذكرها . ذلك ماكان من ثورة سنة ١٨٤٨ فانها بدأت فى باريس وماعتمت ان امتدت الى قسم كبير من اوروبا وهزت اركان كثير من الممالك

قالوا أن لحب التقليد تأثيراً كبيراً فى الناس وليس التقليد الا اثراً بسيطاً من العدوى . وقد بينت أثر التقليد منذ خمس عشرة سنة فى غير هذا الكتاب فاكتفى بايراد ما قلته اذ ذاك مما شرحه بعد ذلك الكتاب حديثاً

« الرجل شبيه بالحيوان يميل بطبعه الى التقليد . فالتقليد من حاجاته على شرط سهولته . وهذه الحاجة هى التى تجعل للبدىء « المودة » تأثيراً كبيراً . والقليل من الناس لا يقلد سواء كان ذلك فى الافكار أو الاراء او الادبيات أو اللباس لأن الذى تقاد به الجماعات هو المثال لا البرهان . ولكل عصر اناس قليل عددهم يستحدثون البدىء فيقلدهم ابناء عصرهم فيها . وانما يشترط ان لا يبتعد المبتدع كثيراً عن المألوف حتى لايصعب التقليد فيضعف تأثير المبتدع ولذلك لم يكن للذين فاقوا عصرهم من كبار الرجال تأثير فى قومهم الا نادراً لبعد البون بينهما . ومن هنا قل تأثير الاوروبى فى الشرق مع ما للاول من المزايا المدنية لان الخلف شديد بين الرجلين

يتشابه أهل كل عصر فى كل أمة بتأثير الزمن وتبادل التقليد حتى الذين يخيل

انهم متفاوتون كالحكماء والعلماء والادباء فانك ترى على أفكارهم وما يكتبون صبغة عشيرة واحدة تدلك فى الحال على انهم أبناء عصر واحد . ولا يلزم أن يطول الحديث مع رجل لمعرفة الدرس الذى يصبو اليه . والعمل الذى اعتاده . والبيئة التى يختلف اليها [١]

ويبلغ تأثير العدوى الى حد انه يتعدى توحيد الافكار الى توحيد كيفية التأثر بالحوادث . فالعدوى هى التى تنفر من الشىء فى وقت من الاوقات ثم ترغب فيه ثانية من كان أشد الناس بغضاً له كما وقع فى (تانها وزر)[٢]

والعدوى هى الاصل فى انتشار أفكار الجماعات ومعتقداتها لا الحجج والبراهين ففى الحمارة تتولد أفكار الفعلة من طريق التوكيد والتكرار والعدوى. وقليلا ماتولدت أفكار الجماعات فى كل عصر من غير هذا الطريق . وقد أصاب (رنان)[٣] اذ شبه مؤسسى النصرانية الاولين «بالفعلة الاشتراكيين الذين ينشرون مبادئهم من حمارة الى أخرى» وقال (فولتير)[٤] قبل ذلك بالنسبة للديانة المسيحية « انها استمرت لايدين بها الا أخس الناس مدة مائة عام »

ويؤخذ من الامثلة المتقدمة ان العدوى فى مثل تلك الاحوال تبتدىء فى الطبقات النازلة ثم تصعد منها الى الطبقات الرفيعة ونحن الآن نشاهد هذه الظاهرة فى مذهب الاشتراكيين لأنه بدأ يمتد بين الذين يخال انهم سيكونون أول ضحاياه لكن قوة العدوى شديدة بحيث يضعف أمامها أثر المنافع الذاتية

هذا هو السبب فى ان الفكر اذا انتشر بين طبقات العامة لابد له من

---

(١) راجع كتاب الانسان والهيئة الاجتماعية لمؤلفه جوستاف لوبون سنة ١٨٨١ جزء ٢ ص ١١٦

(٢) رواية وضعها وجزر نفر الناس منها أولا ثم أعجبوا بها

(٣) حكيم مشهور بفرنسا فى أواخر القرن الماضى وكان قسيساً فى مبدأ أمره وهو صاحب الكتاب المعروف المسمى (حياة المسيح)

(٤) أشهر كتاب الفرنساويين فى القرن الثامن عشر

الانتشار أيضاً بين بقية طبقات الأمة الى أرفعها وان كان فاسداً بعيداً عن الصواب. وهنا رد فعل يشرئب من الطبقات الدنيا الى الطبقات العليا . وذلك من أغرب المشاهدات الاجتماعية لأن الافكار العامة لاتأتيهم دائماً الا من أفكار عالية تخلف عنها أثرها فى البيئة التى ولدت فيها فيتناولها قائدو الجماعات بعد أن تتمكن منهم ويشوهونها ثم يؤلفون فئة تزيد فى تغييرها . ثم يبثونها فى الجماعات وهذه تضاعف التغيير . ثم تصير حقيقة عند العامة وبعد ذلك تصعد الى منبعها فتتمكن من نفوس الطبقة العالية . وعلى هذا يكون العقل هو الذى يحكم الدنيا ولكن من بعد باعد . فقد تفنى عظام الحكماء الذين يوجدون الافكار وتصير تراباً ويمر عليها كذلك الزمن الطويل قبل أن تسود الافكار التى أوجدوها

٣

النفوذ

مما يساعد كثيراً على قوة تأثير الافكار التى بثت فى الجماعات بواسطة التوكيد والتكرار والعدوى كونها تنتهى باكتساب قوة خفية تسمى النفوذ

للنفوذ قوة لاتقف أمامها قوة أخرى . وكل سلطة سادت فى الوجود سواء كانت سلطة الافكار أو الرجال فهو السبب فى قيامها وسيادتها . والنفوذ كلمة يعرف الجميع معناها ولكنها تستعمل استعمالات كثيرة . ولذلك لم يكن من السهل تعريفها . وقد يجتمع النفوذ مع بعض المشاعر كالاعجاب أو الرهبة. وربما كان الاثنان أصلا له فى احوال كثيرة . الا انه قد يوجد بدونهما . مثل نفوذ الذين ماتوا فانه لا محل للخوف منهم . ودليل ذلك ان أكثر من نشعر بنفوذه فينا هم من الذين ارتحلوا عن هذه الدار ولم نعد نخاف منهم مثل الاسكندر وقيصر ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وبوذا . كذلك لبعض الكائنات أو البدع تأثير فى النفوس وان كان مما لايعجب به كالآلهة المنغوليين الذين يوجدون فى معابد الهند التى تحت سطح الارض

ويمكن أن يقال ان النفوذ عبارة عن سلطة رجل أو عمل أو فكر يستولى بها على العقول. وتلك السلطة تعطل ملكة النقد فتملأ النفس اندهاشاً واحتراما. ولا يمكن تفسير الشعور الذى يحدث منه كما هو الشأن فى كل شعور . الا انه لابد أن يكون من جنس الاجتذاب الذى يحدث فى نفس الشخص النائم نوما مغناطيسياً . والنفوذ اعظم مقوم لكل سيادة فى العالم اذ لولا هو ماسادالآلهة والملوك والنساء

ثم النفوذ انواع يمكن حصرها فى قسمين . النفوذ المكتسب والنفوذ الشخصى . فالاول هو الذى يرجع لاسم صاحبه أو ثروته أو شهرته. وقديكون منفصلا عن النفوذ الشخصى وأما النفوذ الشخصى فهو أمر ذاتى قد يجتمع مع الشهرة والمجد والثروة ويشتد بانضمامها اليه . وقد يكون وحده

وأكثر النوعين شيوعا هو النفوذ المكتسب أو العرضى فهو يثبت للرجل بمجرد كونه يشغل مركزاً أو يملك ثروة أو يتحلى ببعض الالقاب وان لم يكن له قيمة من نفسه فللجندى فى لباسه وللقاضى فى زيه الرسمى نفوذ ما ارتديا لباسهما. ولذلك قال (باسكال) بضرورة الجبة والشعر للقضاة[1]

ولولا الجبة والشعر لفقدوا ثلاثة أرباع نفوذهم ولا يزال الاشتراكى كيفما اشتد جفاؤه يشعر بشىء من الاضطراب اذا رأى اميراً أو عظيما من الشرفاء ويكفى أن يكون هذا اللقب لرجل ليتمكن من النصب على التاجر فيما يشاء

والنفوذ الذى أشرنا اليه خاص بالانسان . وبجانبه يوجد النفوذ الذى يكون للافكار أو الادبيات أو الفنيات وغير ذلك وهو فى غالب الاحوال ناشىء

---

(١) للالقاب والاوسمة والشارات تأثير فى الجماعات فى كل بلد حتى التى بلغ فيها استقلال الفرد وحريته ارفع الدرجات . وانى أنقل هنا جملة غريبة من كتاب حديث نشره أحد السياح بيانا لنفوذ بعض العظماء فى انكلتره قال : « لاحظت مراراً ان اجتماع أحد الحائزين لقب (بير) مع اكبرهم عقلا وتمييزاً يحدث فى نفوس هؤلاء شعوراً يكاد يكون سكراً من نوع خاص . فمتى كان له

من التكرار وما التاريخ وبالاخص تاريخ الآداب والفنون الا تكرار رأى سبق ولم يعارضه أحد فيؤول الامر الى ان كل واحد يكرر ماقرأ فى المدرسة ووجدت بذلك أسماء وأشياء لا يجرأ أحد على الحديث فيها فما لا شبهة فيه ان مطالعة « هومير » تورث قراء هذا الزمان مللا شديداً الا انه لا يجرأ أحد على القول به و « البارتينون » أصبح اليوم خرابة تراكمت فيها الانقاض ولا فائدة منها . الا أن نفوذه لا يزال قويا حتى انهم لا يبصرونه كما هو الآن بل كما كان فى القدم محفوفا بابهته وفخامته فمن خواص النفوذ أن لا يجعل الانسان يرى الشيء على حقيقته وان يعطل فيه ملكة النقد والتمييز

تحتاج الجماعات دائما والافراد غالبا الى آراء حاضرة فى جميع المباحث وانتشار هذه الآراء غير مرتبط بما اشتملت عليه من الصواب أو الخطأ بل مرجعه ما لها من النفوذ

ننتقل الآن الى النفوذ الشخصى وهو يختلف مع النفوذ المكتسب لانه صفة تنفرد عن كل لقب وكل وظيفة يتصف بها أفراد معدودون فيبهرون بها نفوس من حولهم ويجذبونها اليهم كالمغناطيس وان ساووهم فى المنزلة بين أمتهم ولم يكن لهم شيء من وسائل التسلط والغلبة ويبثون فيهم أفكارهم وينقلون اليهم مشاعرهم واولئك يطيعون امرهم كما يطيع الحيوان المفترس أوامر مروضه . وان كان فى استطاعته افتراسه بالسهولة لو أراد

كان هذا النفوذ الكبير لجميع العظماء من قواد الجماعات مثل بوذا وعيسى

= من اليسار مايرتكز عليه لقبه فهم يحيونه قبل أن يروه . فاذا التقوا به تلقوا منه كل شيء فرحين . تحمر وجوههم سروراً بمقدمه . فاذا خاطبهم كتموا جذلهم فيشتد احمرار الوجنتين . ويظهر فى العينين بريق غير معهود . اللوردية فى دمهم كالرقص عند الاندلسى . والموسيقى عند الالمانى والثورة عند الفرنساوى . شهوتهم فى الخيل وشكسبير أقل من شهوتهم فى الشرفاء وارتياحهم وتيههم لهؤلاء أكبر . كتاب تلك الرتبة عندهم فى رواج وهو كالتوراة موجود عند كل انسان

ومحمد صلى الله عليه وسلم وجان دارك ونابليون . وهو السبب فى تمكنهم فانما تتسلط الآلهة والابطال والمذاهب تسلطا لادخول للمناظرة فيه . بل ذلك السلطان يزول اذا بحث فيه

كان أولئك العظماء ذوى قوة أخاذة قبل اشتهارهم وتلك القوة هى السبب فى شهرتهم . فلما بلغ نابليون مثلا ذروة المعالى كان له نفوذ شامل بمقتضى منعته وسلطانه . الآ انه كان له شىء منه يوم لم يكن له شىء من السلطة ولم يكن معروفا لدى أحد فلما ترقى الى رتبة لواء (جنرال) وكان لايزال مجهولا عهد اليه من كان مستصنعاً له بقيادة الجيش الفرنساوى المحارب فى بلاد ايتاليا فوجد نفسه بين لواآت عتاة أشداء وكانوا قدأجمعوا أمرهم على الاغلاظ له فى المقابلة لاعتبارهم اياه دخيلا بينهم . ولكنه ماعتم أن أخذ بزمامهم من أول التقائه بهم بلا كلام ولا اشارة ولا وعيد بل بأول نظرة من ذلك الذى قدر له أن يكون من العظماء واليك كيف كان اللقاء

« جاء قواد الفرق الى المعسكر العام وقابلهم نافرة من هذا الرجل حديث النعمة وكان بينهم اللواء « اوجيرو » وهوجندى عظيم الجثة غليظ الطبع مختال بطول نجاده فخور بشجاعته وكان ممتعضاً ينساب بالشتائم على نابليون من يوم ان سمع به وعرف اوصافه فسماه صنيعة « باراس » ولواء الشارع ونعته بالدب لانه كان يحب التفكر منعزلا وذا سمنة صغيرة ومشهوراً بالرياضى الصغير وبالخيال فلما اكتملوا ادخلوهم غرفة الاستقبال فأبطأ نابليون فى الخروج اليهم وبعد زمن بان لهم متقلداً سيفه ثم اتشح بردائه واخبرهم بنياته واتفذ اليهم اوامره واشار اليهم بالانصراف اما « اوجيرو » فقد تولاه الصمت ولم يرجع الى نفسه الا بعد ان خرج فجعل يسب كما كان يشتم من قبل ولكنه اقر مع زميله (مسينا) ان هذا القائد الصغير اوقع الرعب فى قلبه وانه حائر فى التأثير الذى اخذه به اول ما وقع بصره عليه »

صار نابليون من كبار الرجال فزاد نفوذه بمقدار ما اوتى من المجد واصبح

فى اعين الجماعات مساويا للآلهة عند المتعبدين اتفق ان القائد « فاندام » وكان جنديا ثوريا خشن الطباع جاف الاخلاق اكثر من زميله (اوجيرو) قصد ذات يوم سراى تويلرى حيث نابليون وذلك سنة ١٨١٥ ومعه القائد (اورنانو) فقال الاول للثانى وهما صاعدان فوق سلم القصر يحدثه عن نابليون (ايها الصديق ان لذلك الرجل الشيطان فى نفسى تأثيراً لست ادرك كنهه حتى انك لترانى مع كونى لا اخاف الله ولا الشيطان اذا اقتربت منه تأخذنى الرعشة كالطفل الصغير ويخيل الى انه قادر على ادخالى فى سم الخياط واحراقى بالنار)وقد كان لنابليون مثل ذلك التأثير فى جميع من يقترب منه (١)

هذا التأثير الذى فاق حد الاعجاب يبين لنا السبب فى الاستقبال العظيم الذى قوبل به نابليون يوم عودته من جزيرة « الب » وكيف أنه افتتح ثانية بلاامهال قلوب الامة الفرنساوية وهو أعزل وليس معه معين وأمامه جيوش تلك الأمة المنظمة وكان الناس يظنون أنها سئمت من جبروته عليها . حلف القواد الذين ارسلوا للقبض عليه أن يفعلوا فلن تكن الا نظرة منه اخضعتهم وهم صامتون

(١) وكان هو يعلم ذلك من نفسه ويعلم انه يزيد فيه بمعاملته اكبر من حوله من الرجال معاملة لا تليق بعلاف الخيل على انه كان من بينهم كثيرون من رجال الثورة الذين ازعجوا اوروبا . وروايات عصره مشحونة بالامثلة فى هذا الموضوع فمنها انه انتهر ذات يوم (بونيو) وسط مجلس شورى الدولة ونعته بخادم قليل التربية . فارتعد المشتوم . فاقترب منه نابليون وقال له (اثاب اليك رشدك ايها الابله الكبير) . وكان بونيو واقفاً على قدميه كالمارد فانحنى ملياً فمد الصغير يده وقبض على اذن الكبير . قال (بونيو) (علامة رضا تسكر من وجهت اليه وصفاء سيد يتلطف) . هذه الحوادث وامثالها تدل على ما يفعله النفوذ فى النفوس اذ يجعلها تخنع خنوع الذلة والصغار . وتبين درجة احتقار ذلك الجبار العظيم لمن حوله فهو الذى كان يقول عنهم انهم لا يصلحون الا حشوا للمدافع

وكتب القائد (ولسلى) فى ذلك يقول « نزل نابليون من السفينة الى بر البلاد الفرنساوية وليس معه الا قليل من رجاله الخصوصيين كانه فار من جزيرة (الب) الصغيرة التى كانت كل ما يقدر ان يتسلط عليه فما لبث بضعة اسابيع حتى قلب نظام الادارة الفرنساوية كلها على مرأى من ملكها الشرعى وذلك من غير أن يريق قطرة دم لواحد من أهلها بل بمحض نفوذه الشخصى مما لم يسبق له مثيل فى الدنيا واعجب منه ما كان له من التأثير فى حلفائه أثناء هذه الحركة الطويلة التى ختمت فيها حياته العموميـة فانه كان يلجئهم الى تتبع خطاه حتى كاد يسحقهم لولا المقادير

مات نابليون ولـكن نفوذه بقى حياً بعده أو صار ينمو وتأثيره هذا هو الذى حمل الناس على الاعتراف بابن اخته امبراطوراً وكان من المستضعفين وها نحن أولاء اليوم نشهد ظهور اقاصيصه من جديد وذلك برهان على أن خياله لا يزال قوياً فى النفوس . اسىء معاملة الرجال كما تشاء واقتلهم الوفا الوفا وانزل على البلاد غارة وغارة انك فى حل مما تصنع ما دمت ذا نفوذ وكان فيك من الذكاء ما تحمى به ذاك النفوذ

ربّ قائل ولـكنك قد اخترت التمثيل للنفوذ باكبر مثـال عزيز المثال والحق انى اخترته عمداً لابين للقراء كيف ثبتت أركان الديانات الـكبر . وقامت المذاهب العظام . وانشئت الممالك الواسعة اذ لولا تأثير النفوذ فى الجماعات ما كنا لذلك مدركين

لا يقوم النفوذ بالتأثير الشخصى والفخار العـكرى والرهبـة الدينية دون سواها . بل يجوز ان يتسبب عن أمر أصغر منها بكثير ويكون مع ذلك شديداً . ولنا من القرن الحاضر امثلة كثيرة اكبرها مثال سيتوارثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل . وهو الذى نراه فى تاريخ ذلك الرجل العظيم الذى غـير وجه البسيطة كما غـير طرق المواصلات التجارية بين الأمم يوم ان فصل بين القارتين وقد كان السبب فى نجاحه ما اوتيه من قوة الارادة . ولا تنس تأثيره الذ

كان ينفذه الى نفوس مخالطيه . كان الناس كلهم اضداداً له فاذا ما وجد فيهم انقلبوا برأيه معجبين . واذا خاطبهم اسكرتهم عذوبة القول فاصبحوا بعد النفور احبة صادقين ولقد انفرد الانكليز بالشدة فى معارضته فلما ظهر فى بلادهم صاروا له اعواناً مخلصين . ثم مر بمدينة (سوثمبتون) فدقوا النواقيس فرحاً بمقدمه وهم يفكرون الآن فى اقامة تمثال يخلد ذكره دهر الداهرين . قامت فى وجهه الحوائل من مادة ورجال وماء وصخور ورمال فقهر الكل وسخره فلما فاز اصبح لا يؤمن بالصعاب ولا يخشى الصدام واراد ان يبدأ عملا جديداً ففكر فى الذهاب من السويس الى باناما . وشرع فى العمل بالوسائل نفسها لكن الشيخوخة كانت قد اقبلت . واليقين لا يزحزح الجبال الا اذا لم تتصل بذروتها السماء . هنالك استعصى الجبل . وحم القضاء . ونزلت الكارثة فهدمت صرح مجد اقامه ذلك البطل العظيم ان فى حياته لمرشداً كيف يحيا النفوذو كيف يموت . بلغ الرجل فى المجد ارفع منزلة رقيها كبار الرجال . . وانزله قضاة امته الى اخس دركات المجرمين فلما مات مرت جنازته كأنها تشيع نفسها بين الجماهير وهم عنه لاهون وانما ملوك الدول الاجنبية هم الذين ذكروه يوم مماته فاعربوا عن اعجابهم به كما يقع لأعاظم الرجال (١)

---

(١) لما مات دولسبس نشرت جريدة (نوى فراى بريسه) النمساوية بمدينة (فينا) مقالة فى مآل ذلك الرجل جاءت فيها بخواطر جديرة بالامعان ولذلك ننقلها للقراء قالت (لم يبق موجب للعجب من مآل كريستوف كولمبو (١) الذى يثير الحزن والاسى بعد الحكم على (فرديناند دولسبس) لانه اذا كان فرديناند دولسبس نصابا فكل امل من الآمال الكبار جرم عظيم ولو كان دولسبس من اهل العصور الاولى لتوجه اهل زمانه بابهى تاج من المجد والفخار . ولسقوه الرحيق فى حجرة آلهتهم التى كانوا يعبدون لأنه غير وجه الارض . واتى من الاعمال ما يدعو الى تحسين الخلق فى الوجود

---

(١) هو الذى اكتشف امريكا

الأمثلة التى قدمناها تعد أقصى ما يبلغ النفوذ اليه . فاذا أردت ان تعرف ماهية النفوذ مفصلا وجب ان تضع تلك الأمثلة فى أعلى السلم ثم تتدرج من منشئى الديانات ومقيمى الممالك حتى تصل الى الرجل البسيط الذى يحاول أن يبهر جاره بثوب جديد أو وسام

وبين هاتين النهايتين درجات كثيرة من النفوذ تراها فى جميع أركان المدنية من علوم وفنون وآداب . وترى النفوذ أول مؤثر فى تحصيل الاعتقاد . فالناس

خلد رئيس محكمة الاستئناف اسمه فى التاريخ بحكمه على دولسبس لأن الامم لاتنفك تسأل عن اسم الذى اجترأ غير هياب فحط من قدر عصره . وألبس طاقية المجرمين رأس شيخ كانت حياته مجداً وفخاراً لمعاصريه

ألا فليكفوا منذ اليوم عن ذكر العدالة بين ربوع تمكنت البغضاء من نفوس صغار الموظفين فى مصالحها فحنقوا على كل من قام بعمل مجيد . الا ان الامم فى حاجة الى رجال ذوى عزم واقدام يثقون بأنفسهم ويقتحمون كل صعب وهم لذواتهم غير ملتفتين الا انه لاحذر لنابغ اذ لو كان حذراً ما أمكنه أن يرقى هامة العصر الذى هو فيه

« ذاق فرديناند دولسبس حلاوة المجد وغضاضة الجذل . السويس وبناما. وهنا يحق للنفس أن تغضب من آداب الفوز والانتصار فلما أفلح دولسبس وجمع بين البحرين جاءته الملوك والامراء تهديه التهانى . واليوم لما أدركه الفشل أمام صخور (كورديلبير) كان نصابا حقيراً ، ان هذه الاحرب تقوم بين الطبقات فى الامم يثيرها حقد الموظفين الذين ألفوا المكاتب ولاذوا بقانون العقوبات انتقاما ممن يصبو الى المجد والمعالى، ولقد يحار مشرعو هذى العصور امام تلك الافكار العالية التى يولدها النبغاء ، والعامة فى ذلك أقل فهما وأدنى ادراكا ، لكن من السهل على الافوكاتو العمومى اقامة البرهان على ان ستانلى من القتلة وان دولسبس من الخادعين

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

يقلدون ذا النفوذ عمداً أو بمحض الفطرة سواء كان انسانا أو رأيا أو شيئاً آخر . ويتولد فى أهل عصر من قلدوه طريقة مخصوصة يحـون بها ويترجمون عما به يشعرون . ويكون التقليد فى الغالب فطريا لذلك يبلغ حـد الـكمال والأتقان . ومن ذلك ان مصورى هذه الايام أخذوا يعيدون رسم الصور ذات الالوان الباهتة والازياء العابسة التى تمثل أناساً من أهل الفطرة الاولى . وهم لا يشعرون من أين جاءهم هذا الميل ويظنون انهم هم الذين أوجدوه لأنفسهم وفاتهم انه صنع أحد كبار المصورين ولولا ذلك لاستمروا على النظر الى تلك الصور من جهة سـذاجتها وانحطاط درجتها فى فن التصوير . ومنهم من قلدوا أحد المشاهير فجعلوا يكثرون فى مصوراتهم من الظلال البنفسجية اللون مـع انهم لا يرون هذا اللون منتشراً فى الطبيعة اكثر مما كان يراه غيرهم منذ خمسين عاما . والواقع انهم متأثرون بفعل أستاذ من عظماء اساتذة الفن كانت له فى ذلك التلوين شهرة فائقة وان كان هذا الاختراع مما يعـد غريباً . وأمثال المصورين كثيرة فى جميع عناصر المدنية

ويؤخذ مما تقدم ان النفوذ يتكون بعوامل شتى أهمها النجاح . فمتى نجح الآمر فى أمره دانت له الناس وبطلت معارضتهم له وكذلك الفكر اذا تمكن من العقول والدليل على ان النجاح أقوى عامل فى تحصيل النفوذ ان هذا يذهب بذهاب ذاك . فالناس يهللون فى المساء لبطل كل بالنصر ويسخرون منه فى الصباح اذا قلب له الزمان ظهر المجن . وبقدر النفوذ يكون انعكاس الرأى فى صاحبه اذا تولته الخيبة فتراه الجماعة من اندادها فتميل الى الانتقام منـه جزاء ذلها أمام سلطانه الذى لم تعد تعترف له بشىء منه . هكذا كان نفوذ روبسبير شـديدا يوم كان يقطع رؤوس زملائه ورؤوس الـكثير من معاصريه . فلما ضاعت منه بعض الاصوات وقت الانتخاب وسقط من مركزه فارقه النفوذ لساعته . وشيعته الجماعة الى المشنقة وهى تتميز من الغيظ كما كانت تشيع بالامس ضحاياه . ومن عبد الآلهة وزاغ عنها كاد يقتله الغضب وهو يحطم الاصنام

يذهب الخذلان بالنفوذ فجأة وقد يذهب النفوذ بالبحث فيه . لكن ذلك لا يتم الا بالتدريج . وهذه الوسيلة هى أضمن الوسائل لاضاعته وما من اله أو انسان دام له النفوذ زمنا طويلا الا كان لا يحتمل المناظرة فيه . انما تعجب الجماعات بمن يترفع عن مقامها

الفصل الرابع

حدود تقلب معتقدات الجماعات وافكارها

(١) فى المعتقدات الثابتة — فى عدم تقلب بعض المعتقدات العامة — فى أن هذه المعتقدات هى التى تهتدى بها المدنية — فى صعوبة ازالتها — فى أن التعصب أحد فضائل الأمم من بعض الوجوه — فى ان بطلان معتقد عقلا لا يؤثر فى انتشاره ورسوخه

(٢) فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة — فى ان الافكار التى لا ترجع الى المعتقدات العامة كثيرة التغير — فى أن تغيير المعتقدات والافكار يظهر فى أقل من قرن واحد — فى حدود هذا التغير الحقيقية — فيما يكون فيه الغير — فى ان زوال المعتقدات العامة فى العصر الحاضر وشدة انتشار المطبوعات مما يزيد فى كثرة تغير الافكار — فى أن أفكار الجماعات تميل الى عدم الاهتمام بكثير من الاحوال — فى ضعف الحكومات عن قيادة الافكار كما فى الزمن السابق — فى أن تشعب الافكار فى الزمن الحاضر يمنع من تسلط القاهر المستبد

١

فى المعتقدات الثابتة

يوجد بين الخواص التشريحية أى الجسمانية والخواص النفسية تشابه تام .

فمن الاولى ما هو ثابت أو لا يتغير الا ببطء شديد بحيث يلزم لتغييره زمن كالذى بيننا وبين الطوفان . ومنها ما هـو متقلب يتغير بالسهولة من أثر البيئة أو المربى . وقد يبلغ التغيير درجة تختفى فيها الخواص الاصلية على غـير المتأمل وكذلك الحال فى الخواص الادبية . فمن اخلاق الشعب ماهو ثابت لا يغيره كرور الايام . ومنها ما هو متقلب يتغير . ومن ينعم النظر فى معتقدات الامم وأفكارها يرى دائما فى اخلاقها أصلا ثابتاً ترسب فوقه أفكار متقلبة كما ترسب الرمال فوق الصخر

وعليـه تنقسم معتقدات الجماعات الى قسمين الاول المعتقدات الدائمة التى تعمر عدة قرون واليها ترجع مدنية الامة كلها . كالاقطار التى سادت أيام حكم الشرفاء والمعتقدات المسيحية وافكار الاصلاح « البروتستانتية » وكالجنسية . والافكار الديموقراطية والاجتماعية فى أيامنا . والقسم الثانى يشمل الافكار الوقتية المتغيرة . وهى مشتقة فى الغالب من الافكار العامة تظهر وتغيب فى الجيل الواحد كالنظريات التى تسترشد بها الفنون والادب فى أوقات معلومة ومذهب حرية الكتابة « الا نشأ » (١) ومذهب الطبيعيين ومذهب الصوفيـة . وهكذا . وتلك الافكار كلها سطحية سريعة التغير كالبدىء (المودة) فمثلها كمثل الامواج الصغيرة التى تظهر وتختفى من دون انقطاع على سطح بحيرة عميقة

المعتقدات الكبيرة العامة قليلة جداً . وقيامها وسقوطها فى كل امة ذات تاريخ يمثلان اعظم دور فى حياتها . ولا قوام للمدنية بدونها

ومن السهـل جداً ايجاد فكر وقتى فى عقول الجماعات لكن من الصعب جداً تقرير معتقد دائم فى نفوسهـا كما انه من الصعب جداً هدم اعتقاد تمكن منها . ولا سبيل الى التغيير غالباً الا بالثورات العنيفة بل أن الثورة لا تؤدى الى ذلك الا اذا اضمحل قبلها اثر المعتقد فى النفوس . فهى تصلح لكسح تلك

---

(١) هو مذهب يقول أصحابه بعدم وجوب التقيد دائماً بما جرى عليـه السلف فى فن التحرير من التزام قواعد وتراكيب مخصوصة

البقية التى تكاد تكون فى حكم المهمل لولا أن سلطان العادة يمنع من الاقلاع عنها بالمرة . فالثورة التى تقبل عبارة عن معتقد يدبر

ومن السهل تجديد اليوم الذى يندك فيه أحد المعتقدات الكبرى ذلك هو يوم يأخذ الناس بالبحث فى قيمة هذا الاعتقاد لأن كل اعتقاد عام يكاد يكون امراً فرضياً . فهو لا يحتمل البقاء الا بشرط عدم البحث فيه

غير أن النظامات التى اسست على اعتقادعام تستمر حافظة لقوتها ولاتتحلل الا ببطء وان تزعزع ذلك الاعتقاد فاذا تم له الهدم تساقط ما بنى عليه

ومما قضت به سنة الوجود حتى الآن ان كل أمة اصبحت متمكنة من تغيير معتقداتها لابد لها عاجلا من تغيير جميع اركان حضارتها فهى تغير وتبدل فيها حتى تهتدى الى معتقد جديد عام ترضاه النفوس وتعيش فى فوضى حتى تعثر عليه فالمعتقدات العامة هى دعائم الحضارة التى لابد منها وهى التى ترسم للافكار طريقها الذى تسير فيه وهى التى توحي بالايمان وتفرض الواجبات

أدركت الأمم على الدوام فائدة المعتقدات العامة وفطنت الى أن يوم زوالها هو يوم بدء سقوطها . عبد الرومانيون مدينة روما عبادة المتعصبين فسادوا على الدنيا أجمع . فلما انطفأ هذا الاعتقاد ماتت مدينة روما . واستمر المتبربرون الذين خربوا ملكها على همجيتهم حتى اذا رسخت بينهم بعض المعتقدات العامة وجد فيهم شيء من الامتزاج والتآلف وخرجوا من الفوضى

وعليه تعذر الامم فى دفاعها المستميت عن معتقداتها . اذ الحقيقة ان هذا التعصب هو أرقى الفضائل فى حياة الامم وان كان مذموماً جداً من الجهة الفلسفية

ما أحرق أهل القرون الوسطى الالوف من الناس الا للدفاع عن معتقد عام موجود أو لادخال معتقد عام جديد فى النفوس وما مات الكثير من المخترعين والمبتدعين والاسى ملء قلوبهم الا لانهم لم ينالوا قسطا من العذاب لأجل تلك المعتقدات وما اضطربت الدنيا المرة بعد المرة الا للدفاع عنها . وما ماتت الملايين فى ساحة الوغى الا بسببها . وكذلك يكون فى مستقبل الايام

من الصعب غرس معتقد جديد لكنه بعد أن يتمكن من النفس يدوم شديد التأثير زمناً طويلا وكيفما كان خطأ من الجهة الفلسفية فانه يتسلط على أكبر ذوى الالباب . بدليل ان الأمم الأوروباوية دانت لاقاصيص واعتقدتها حقائق لا شك فيها خمسة عشر قرنا . والمتأمل فى تلك الاقاصيص يراها أحق بالقوم الهمج[1] كأقاصيص (مولوخ)[2] هكذا بقى العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بأن الهاً أذاق ابنه عذاب الهون انتقاما ممن عصاه من خلقه . ولم يجل بخاطر أعظم الرجال عقلا وادراكا مثل (غاليليه) و (نيوتن) و (لايبنيتز) انه يجوز النظر فى حقيقة هذه الافكار . ذلك مما يبرهن على قوة استيلاء المعتقدات العامة وسحرها النفوس . ولكنه يبرهن أيضاً على ان العقل محدود بحدود مخجلة

٥ ومتى تمكنت عقيدة جديدة من نفوس الجماعات أصبحت مصدر نظاماتها ومرجع فنونها وقاعدة سيرها. هنالك يستحكم سلطانها وتتم غلبتها . فترى أهل العزائم لا يفكرون الاّ فى تحقيقها . وواضعى القوانين الا فى الأخذ بها والفلاسفة وأرباب الفنون والكتاب الاّ فى تمثيلها على صور شىء

وقد يتولد عن العقيدة العامة أفكار وقتية ثانوية الا انها تكون على الدوام مصبوغة بصبغتها فقد تولدت حضارة المصريين وحضارة الاوروبيين فى القرون الوسطى وحضارة المسلمين من عقائد دينية قليلة العدد طبعت كل عقيدة منها خاتمها على كل جزئية من جزئيات حضارتها وسهلت بذلك معرفتها .

(١) اقول الهمج من حيث الفلسفة والنظر اما عملا فقد اوجدت تلك الاقاصيص مدنية جديدة صرفة . وأبصر الناس من ورائها مدى خمسة عشر قرنا هاتيك الجنان دانية القطوف واحيت قلوبهم بالآمال مما لم يعودوا يذوقون حلاوته الآن

(٢) اله عبده الكلدانيون واهل قرطاجة وكانوا يحرقون الاطفال قرباناً له ويعتقدون انه يمد ذراعيه دائماً ليتلقاها (م)

من هذا يتبين ان الفضل للعقائد العامة فى احاطة أهل كل عصر بتقاليد وأفكار وعادات تقيدوا بها وصاروا متشابهين والذى يهدى الناس فى سيرهم انما هى الافكار والعادات المتولدة عن تلك العقائد فهى الحاكمة على أعمالنا جليلها وصغيرها وكيفما سمت مداركنا فانا لا نفكر فى الخلاص منها . اذا الاستبداد الحقيقى هو الذى يدخل على النفوس من طريق الغرائز . لانه هو الذى لا يتمكن المرء من محاربته . فلقد كان (تيبير) و (جنكيزخان) و (نابوليون) جبارين مستبدين ولكن استئثار « موسى » و « بوذا » و « عيسى » و « محمد » صلى الله عليه وسلم و « لوتر » وهم فى القبور أشد وأبقى . ان مكيدة قد تبيد سطوة الجبار ولكن ماذا ينفع الكيد فى عقيدة استقرت فى النفوس . قامت حرب عنيفة بين الثورة الفرنساوية والدين المسيحى وكانت الجماعات فى ظواهر الامر من جانب الاولى واستعمل الثوار من وسائل القهر والاضطهاد ما استعمله الاندلسيون والثورة هى التى دارت عليها الدائرة انما الجبابرة الذين سادوا فى البشر هم خيال الاموات أو الاوهام التى أوجدتها الامم لنفسها

ما كان بطلان العقائد العامة من حيث النظر والفلسفة مانعاً من استظهارها وقد يظهر أن فوزها مشروط باحتوائها على شىء من الهزء الخفى واذا كانت مذاهب الاشتراكيين فى العصر الحاضر واضحة الضعف فليس ضعفها هذا هو الذى يكون سبباً فى عدم استيلائها على نفوس الجماعات . وانما السبب فى انحطاطها عن جميع العقائد الدينية راجع الى أن السعادة التى وعدت بها الديانات لا تتحقق الا فى الدار الباقية فلم يكن لاحد أن يمارى فى تحقيقها . وأما السعادة التى وعد بها مذهب الاشتراكيين فانها يجب أن تتحقق فى الحياة الدنيا ومتى شرع فى ذلك بان ان الوعد خلب وسقط بذلك نفوذ العقيدة الجديدة وعليه فلا يعظم سلطان هذه العقيدة ان تم لها الظفر الا الى اليوم الذى يبدأ فيه بتحقيقها وذلك هو السبب فى ان هذا الدين الجديد له من قوة التخريب ما كان لغيره من الاديان التى سبقته ولكنه لن يكون له ما كان لها من قوة النبأ

٢

فيما للجماعات من الافكار غير الثابتة

يوجد فوق سطح العقائد الثابتة التى شرحنا تأثيرها العظيم طبقة من الافكار والآراء التى تتجدد وتزول دائما . فمنها مايدوم يوماواحداً • وأهمها لا يدوم اكثر من الجيل الذى نشأ فيه • وقد قدمنا ان التغيير الذى يطرأ على هذه الافكار صورى اكثر مما هو حقيق فى الغالب • وانهامصبوغةعلى الدوام بصبغة الشعب الذى توجد فيه • ومثلنا لذلك بنظام بلادنا السياسى فأوضحنا ان أشد المذاهب خلفاً من ملوكيين وجمهوريين وامبراطوريين واشتراكيين وهكذا يشتركون فيما يرمى جميعهم اليه وان هذا المرمى راجع الى طبيعة شعبنا النفسية أو الادبية واستظهرنا على ذلك بوجود أسماء هذه النظامات وانها عندأمم أخرى ودلالتها على شىء آخر وبأن وضع الاسماء للافكار والباس الشىء ثوبا يريه فى صورة غيره لا يغير من حقيقة ذلك الشئ • كان أهل الثورة الفرنساوية متشبعين بأدبيات الرومانيين شاخصين على الدوام الى جمهوريتهم فنقلوا اليهم شرائعهم وقضبانهم [1] واردیتهم واجتهدوا فى تقليدهم فى نظاماتهم وأحوالهم ومع هذا لم يصيروا رومانيين لانهم كانوا محكومين بتقاليدهم التاريخية ووظيفة الحكيم هى استخلاص ما بقى من العقائد الاصلية وسط التقلبات الصورية وان يميز فى معمعة الافكار المتغيرة ما يرجع منها الى روح الشعب وعقائده العامة

واذا لم يوجد هذا الفارق الفلسفى جاز الظن بأن الجماعات تغير كثيراً عقائدها الدينية والسياسية كما تشاء • والظاهر ان التاريخ يؤيد هذا الظن سواء كان تاريخ السياسة أو الدين أو الفنون أو الآداب . لانا اذا نظرنا فى تاريخنا الى الفترة القصيرة الواقعة بين سنة ١٧٩٠ وسنة ١٨٢٠ أعنى ثلاثين سنة وهو عمر جيل واحد رأينا الجماعات التى كانت ملوكية تحولت فصارت ثورية للغاية

(١) شارات القوة والعظمة عند الرومانيين

ثم امبراطورية كذلك ثم عادت ملوكية كما كانت هذا فى السياسة وأما فى الدين فانها كانت كاثوليكية ثم كفرت ثم قالت بالالوهيـة ثم رجعت الى الكثلكة الضيقة الى حد التغالى ولم يكن ذلك شأن الجماعات وحدها بل شاركها فيه كله قوادها فشهدنا والعجب يأخذ منا أولئك الثوار الذين تقاسموا على بغض الملوك وانكروا الله والسلطان أمسوا خداما خاضعين لنابوليون . وأصبحوا يحملون الشموع والخشوع ملء جوانحهم فى احتفالات الملك لويز الثامن عشر

وما اكثر الانقلابات التى طرأت على أفكار الجماعات فى السبعين سنة التالية فقد صار الانكليز حلفاء أمة الفرنساويين فى عهد خليفة نابوليون . وكانوا فى أول القرن أعداء ماكرين وأغرنا مرتين على بلاد الروس وكم خفقت قلوبهم فرحا بانكسارنا ثم صاروا لنا أصدقاء

وأسرع من ذلك تقلب الافكار فى الآداب والفنون والفلسفة فكنا لا نتقيد بقواعد اللغة . وكنا طبيعيين وكنا صوفيين . وكنا غير ذلك كل هذا ظهر واختفى وكان الناس يتغنون باسم هذا الكاتب أو ذاك المصور فى المساء فاذا أصبح الصباح حقروه ورذلوه

واذا دققنا البحث فى هذه التقلبات التى يخال انها حقيقية متأصلة فى النفس رأينا أن ما كان منها مخالفا للاعتقادات العامة ومشاعر الشعب فهو زائل لا يدوم الا يسيراً ولا تلبث المياه أن تعود الى مجاريها . فمن المعلوم انه يستحيل دوام الافكار التى لا رابطة بينها هى والمعتقدات العامة ومشاعر الشعب لانها معرضة لتأثير الطوارىء والاتفاق تتغير بأقل تغيير فى البيئة التى وجدت فيها . ومما يدل أيضاً على عدم بقائها انها تولدت من طريق الالقاء والعدوى فهى تولد ثم تموت بسرعة الرمل الذى يتكون اكداساً على شاطىء البحر ثم تذهب به الريح ثم تعيده وهكذا

ولقد كثرت فى ايامنا هذه افكار الجماعات التى لا بقاء لها . ولذلك ثلاثة اسباب الاول أن الاعتقادات القديمة أخذت تضعف شيئاً فشيئاً فلم تعد تؤثر فى

الافكار العرضية تأثيراً ينظمها ويهديها وضعف تلك الاعتقادات العامة من شأنه أن يفسح المجال لتولد أفكار خاصة لارابطة بينها هى والماضى ولا يرجى بقاؤها فى المستقبل

السبب الثانى أن قوة الجموع تزداد شيئاً فشيئاً والقوة المضادة تضعف بمقدار ذلك وقد عرفنا أن الجماعات كثيرة التقلب فى افكارها فالنتيجة انها اصبحت اكثر حرية فى اظهار تلك الافكار المتقلبة

والسبب الثالث هو كثرة انتشار المطبوعات لما فيهامن كثرة الافكار المتناقضة التى تعرضها على الجماعات فالفكرة لا تكاد تظهر حتى تبطل بظهور فكرة تخالفها وما من فكر ينتشر تماماً وكلها محكوم عليها بسرعة الزوال فهى تموت قبل أن تنتشر انتشاراً يثبتها ويجعلها معتقداً عاماً

من تلك الاسباب تولدت ظاهرة جديدة فى تاريخ البشر ينفرد بها العصر الحاضر وهى ضعف الحكومات عن قيادة الرأى العام

كان زمام الرأى فى الزمن السابق ما هو فى يد الحكومات وبعض ذوى النفوذ من الكتاب وعدد مخصوص من الجرائد فأما الكتاب فقد انعدم تأثيرهم . وأما الجرائد فأن وظيفتها أصبحت قاصرة على أن تكون مرآة للرأى وأما السياسيون فأنهم لا يديرونه بل يسيرون خلفه . وقد اخذتهم منه رهبة تكاد أحياناً تبلغ حد الذعر والانذهال فهم لا يثبتون فى أى طريق يسلكون

تنتج من هذا ان رأى الجماعات يقرب كل يوم من الاستيلاء على زمام السياسة وقد وصل الآن الى الجاء الامم لعقد المحالفات كما وقع أخيراً فى المحالفة الروسية التى كانت حركة الرأى العام مصدرها الوحيد . ومن أعجب مايشاهد الآن استسلام الباباوات والملوك والقياصرة لنظام الاحاديث[1] ليصرحوا بأفكارهم ويعرضوا آراهم فى أمر من الامور الى حكم الجمهور . قالوا فيما مضى ان السياسة

---

(١) يشير الى ما ألفه الناس فى هذه الايام من محادثة الملوك والعظماء ونشر أحاديثهم فى الكتب والصحف

ليست من الأمور التى تسيرها المشاعر وانا نشك فى انه يمكن القول بذلك الآن بعد ما بان ان نزعات الجماعات تقودها كل يوم أكثر من الذى قبله والجماعات لاتعرف العقل ولا تندفع الا بالمشاعر

وأما الجرائد فبعد أن كانت تقود الرأى العام كالحكومات اضطرت الى التسليم امام سلطان الجماعات نعم للجرائد أثر شديد فى الناس لكن ذلك سببه انها صارت مرآة لارائهم ومتغيرة بتغير أفكارهم المستمر . أصبحت الجرائد رسل أخبار فلم تعد قادرة على نشر رأى أو تقرير مذهب بل هى تسير خلف اهواء الجماعات مكرهة على ذلك بحكم المسابقة والتزاحم والا خسرت قراءها ألا ترى الجرائد الكبرى القديمة التى كان لها المقام الاول والتأثير القوى مثل (لوكونستيتوسيونيل) و (الديبا) و (السيكل) وهى التى كان يتلقى آباؤنا أقوالها كالوحى المنزل من السماء قد احتجبت أو صارت صحف أخبار محلاة ببعض الفكاهات القصصية ولطائف المجتمعات والاعلانات التجارية . لاتوجد اليوم جريدة تسمح ماليتها للمحررين بابداء آرائهم الذاتية على انها ان وجدت ما كان لتلك الآراء والافكار قيمة عند القراء لانهم انما يطلبون خبراً يقرأونه أو نكتة يتفكهون بها وصاروا فى ريب من كل رأى ونصيحة توجه اليهم اذ يظنون ان وراءها طمعاً فى ربح أو سعياً لمنفعة خاصة . بل ان أهل النقد أصبحوا لا يجرأون على نشر كتاب أو رواية تمثل فى المراسح فان النقد صار مما قد يجلب الضرر ولا يجر اليهم نفعاً . أيقنت الجرائد بعدم الفائدة من النقد أو ابداء الآراء الشخصية فجعلت تقلل منه فى عالم الادب حتى بطل واستعاضته بذكر اسم الكتاب الجديد متبوعاً بسطرين أو ثلاثة للاعلان عنه والحث على اقتنائه وربما آل الامر الى مثل ذلك بعد عشرين سنة فيما يتعلق بنقد الروايات التى تشخص فى الملاهى

أصبح الشغل الشاغل للجرائد والحكومات تتبع حركات الرأى العام فالذى يهمهم من حادث يقع أو من مشروع قانون يحضر أو من خطاب يلقى انما هو أثر ذلك فى الناس وما ذلك بهين على طلابه لشدة تغير أفكار الجماعات فما أسرعها

فى السخط على أمر لم تكد تفرغ من التهليل له

ينتج عن فقد ان ضابط للرأى واقتران ذلك بانحلال الاعتقادات العامة تفتت اليقين وتمزق الوجدانيات وعدم اهتمام الجماعات بشىء لا تظهر فيه لها منفعة حاضرة ظهوراً تاماً وأما المذاهب كالاشتراكية فان حماتها المخلصين من أجهل الطبقات كعمال المعادن والمصانع أما متوسطو الحال وكل من ناله قليل من التعليم فهم فى شك من كل شىء أوهم كثيرو التقلب

التطور الذى تم من هذه الجهة فى الخمس والعشرين سنة الماضية واضح . فقبل ذلك والعهد قريب كان للافكار وجهة عامة لانها كانت مشتقة من بعض اعتقادات أصلية . وكان للملوكى بمقتضى كونه ملوكيا افكار واراء ثابتة فى التاريخ وفى العلوم . وكان للجمهورى بمقتضى كونه جمهوريا افكار وأراء تناقض الاولى على خط مستقيم . الاول يعتقد أن الرجل ليس متولداً من القرد والثانى يعتقد الضد تماماً . الاول يرى من الواجب عليه اذا تكلم فى الثورة أن يغضب وينفر والثانى أن يعجب ويبالغ فى التعظيم والتبجيل . وكان من الناس من لا يجوز ذكر اسمه الا مقرونا بالخشوع والاجلال مثل (روبسبيير) و (مارات) أو متبوعا بالترذيل والامتهان مثل (قيصر) و (اوغسطس) و (نابوليون) . وعم هذا المذهب السخيف فى التاريخ حتى تفشى فى مدرسة (السربون) نفسها [1]

---

(١) يوجد فى هذا الباب بعض صفحات من كتاب المعلمين الرسميين فى مدارسنا غاية فى الغرابة وهى تدل على ضعف ملكة النقد الناشىء عن طريقة التربية فى المدارس وانى انقل للقراء الاسطر الآتية من كتاب الثورة الفرنساوية لاحد مدرسى التاريخ فى مدرسة (السربون) المذكورة قال « ان الاستيلاء على (الباستيل) عمل من أكبر أعمال تاريخ الامة الفرنساوية بل تاريخ أوروبا كلها لانه كان فاتحة دور جديد فى حياة الامم » وقال عن (روبسبيير) (أن استبداده بالناس كان استبداد رأى ويقين ونفوذ أدبى وكان اشبه بسلطة روحية عليا فى يد رجل من الاخيار) (صفحة ٩١ و ٢٢٠)

ليس لفكر ولارأى فى هذه الايام وقع فى النفوس لكثرة المناظرة والتحليل مما يذهب بطلاوتها ولا يجعل تأثيراً للبقية والذى ينفرد به أهل هذا الزمان هو عدم الاهتمام بالامور شيئاً فشيئا

على انه ينبغى أن لا نحزن من انتشار الافكار نعم لا شبهة فى انه منذر بانحطاط الامة لانه من المحقق أن تأثير أهل الخيالات والرسل وقواد الجماعات وعلى الاطلاق جميع الذين سكن اليقين قلوبهم اكبر جداً من تأثير اهل الجحود والنقادين ومن لا يهتمون بشىء لكن لا يذهب عنا انه اذا تمكن راى واحد من النفوس والجماعات على ماهى عليه الآن من القوة والنفوذ لا يلبث أهله أن يصيروا مستبدين استبداداً يذل له كل مافى الوجود ويغلق باب حرية الافكار وحرية النقد زمناً طويلا . لا يقال أن من سلاطين الجماعات من كان ندى الخلق لين الملمس لان طبعها قلب فهى هوائية سريعة الغضب والانفعال . فاذا قدر لحضارة أن تقع فى يدها اصبحت هدفا للطوارىء والمصادفات وقصر بذلك اجلها . وان كان يرجى تأجيل زمن الانحدار والسقوط فأنما يكون ذلك من شدة تقلبات اراء الجماعات وعدم اهتمامها بالاعتقادات العامة

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان أنواعها

الفصل الأول

أقسام الجماعات

أقسام الجماعات العامة — أنواعها

١ — الجماعات المختلفة العناصر — أوجه اختلافها — تأثير الشعب — فى ان روح الجماعات تكون ضعيفة بقدر ماتكون روح الشعب قوية — فى ان روح الشعب تمثل حالة الحضارة وروح الجماعات تمثل حالة الهمجية

٢ — الجماعات المؤتلفة العناصر — أنواعها — الافتاء والطوائف والطبقات

—

بعد أن بينا الصفات العامة للجماعات النفسية ينبغى أن نبين الصفات الخاصة التى تنفرد بها المجامع عن بعضها اذا صارت جماعات بتأثير الاسباب المؤدية الى ذلك.

ولنبدأ بقول موجز فى تقسيم الجماعات

فأولها الجمع مطلقا وأدنى مراتبه ماكان مؤلفاً من أفراد ليسوا من شعب واحدولا رابطة بينهم الا ارادة رئيسهم بقدر ماله من المنزلة فيهم ويمكن التمثيل لهذه المجامع بالمتبربرين مختلفى الاصول الذين أغاروا على المملكة الرومانية مدة قرون عدة

ويليها الجموع التى احتفتها أحوال وعوامل ولدت فيها صفات عامة وانتهت

بأن صارت شعباً واحداً . ولهذه الجموع فى بعض الاحيان الصفات الخاصة بالجماعات الا ان هذه الصفات الخاصة تكون دائماً متأثرة بصفات الشعب العامة

فاذا اجتمعت فى هذه المجامع بقسميها العوامل التى ذكرناها فى هذا الكتاب صارت جماعات منظمة أو نفسية وهذه الجماعات تنقسم الى الاقسام الآتية

الجماعات المختلفة العناصر وفيها
- أولا
  - (١) الجماعات التى لا اسم لها (كجماعات الطريق العام)
  - (٢) الجماعات التى لها اسم خاص (كالعدول المحلفين والمجالس النيابية وهكذا)
- ثانياً
  - (١) الاقناء (كالجموع السياسية والدينية وهكذا)
  - (٢) الطوائف (كالجموع العسكرية ورؤساء الدين والعمال وهكذا)
  - (٣) الطبقات (كجموع الأواسط وجموع أهل الريف وهكذا)

واليك قولا موجزاً فى بيان مميزات كل نوع من هذه الانواع

القسم الاول

الجماعات المختلفة العناصر

هذه الجموع هى التى شرحنا صفاتها فى هذا الكتاب وهى التى تتألف من أفراد أيا كانوا وكيفما كانت حرفتهم ومهنتهم وعقولهم ونحن الآن نعرف انه متى اجتمع قوم وكونوا جماعة عاملة اختلفت أحوالهم النفسية الاجتماعية مع أحوالهم النفسية الفردية اختلافا عظيما وان العقل لايمنع من هذا الاختلاف لانه لا تأثير له فى الجماعات وان الذى يؤثر فيها انما هو المشاعر الغريزية

ومن العوامل الاصلية ما يسهل معه تميز الجماعات المختلفة العناصر تميزاً تاما

وهوالشعب وقد ذكرناه مراراً وقلنا انه أعظم المؤثرات التى تنبعث عنها أفعال الناس ونقول ان له كذلك أثراً ظاهراً فى صفات الجماعات فالجماعة المؤلفة من أفراد أيّاً كانوا وهم انكليز تختلف كثيراً مع الجماعة التى تتألف من أفراد أيّاً كانوا وهم خليط من الروس والفرنساويين والاسبانيين مثلا

أشد مظاهر الافتراق الناشىء عن الوراثة العقلية فى كيفية الشعور والنظر فى الامور يعرض فجأة متى اجتمع أفراد مختلفو الجنسية لسبب من الاسباب ـ وذلك نادر ـ كيفما اتحدت فى الظاهر المنافع التى اجتمعوا لأجلها . حاول الاشتراكيون عقد مؤتمرات تضم نوابا عن جميع العمال فى كل أمة فأدى ذلك دائما الى خلف عنيف . والجماعة اللاتينية تطلب على الدوام معاونة الحكومة على ماتريد تستوى فى ذلك الجماعة الثورية الصرفة والجماعة المحافظة المحضة فهى تميل بطبعها الى حصر السلطة وجمعها فى يد واحدة والى من يجمع تلك السلطة فى يده . وأما الجماعة الانكليزية أو الامريكية فانها لاتعرف الحكومة ولا تستعين الا بهمة الافراد الذاتية . أول ماتهتم له الجماعة الفرنساوية المساواة . وأول ماتهتم له الجماعة الانكليزية الحرية الشخصية . وبقدر اختلاف الشعوب تختلف المذاهب الاشتراكية والديموقراطية

وعليه تحكم روح الشعب دائما روح الجماعة فهى لها كالدائرة المنيعة التى تنظم تقلباتها وتحدد حركاتها . ومن هنا ينبغى أن نقرر القاعدة الآتية : تكون الصفات المنحطة فى الجماعة ضعيفة بقدر ما تكون روح الشعب قوية . فحالة الجماعة هى الهمجية وتسلطها رجوع الى الهمجية . ولايخرج الشعب من الهمجية ويتخلص من سلطة الجماعات التى لايحكمها العقل الا اذا كانت له روح قوية شديدة وذلك يتأتى بالتدريج

ويلى الجماعات المتقدمة الجماعات التى لااسم لها كجماعات الشوارع ثم الجماعات التى لها اسم تعرف به كجماعات العدول والمجالس النيابية والذى يوجب اختلاف هذين النوعين غالباً فى انفعالها هو ان الاولى لا تشعر بتبعة ما تنتج عن أعمالها

بخلاف الثانية فانها تقدر تبعة عملها كما ينبغى

القسم الثانى

الجماعات المؤتلفة العناصر

تفترقُ الجماعاتُ المؤتلفةُ العناصرِ الى افناء وطوائف وطبقات فالافناء أول المراتب وهى تتألف من أفراد مختلفين فى التربية والحرفة والبيئة أحيانا ولاجامعة تجمعهم الا وحدة الاعتقاد ومن هذا النوع الافناء السياسية والافناء الدينية

والطوائف أرقاها وهى تتألف من أفراد متحدين فى الحرفة فهم متشابهون فى التربية والبيئة كجماعة الجند وجماعة الرؤساء الروحانيين

والطبقات هى التى أفرادها من مناسىء مختلفة اجتمعوا لا بجامعة الاعتقاد كالافناء ولا بجامعة وحدة الحرفة كالطوائف بل بجامعة المنافع والشبه فى حالة المعيشة والتربية كطبقة الاواسط فى الامة وطبقة الزراع وهكذا

ولما كان بحثى فى هذا الكتاب قاصراً على الجماعات المختلفة العناصر ومن نيتى ان افرد للكلام على الجماعات المؤتلفة العناصر كتابا خاصا فلا أطيل فى بيان صفاتِ هذه الاخيرةِ واختمُ الكلامَ على الاولى بذكر بعض أنواعها مثالا للبقية

الفصل الثانى

الجماعات الجارمة

يجوز أن تكون الجماعة جارمة شرعا لكنها لاتعد كذلك فلسفياً — فى ان أفعال الجماعة لاشعورية محضة — أمثلة اشتى — روح جماعة شهر ستمبر — أفكارها وشعورها وقسوتها واخلاقها

—

بعد أن يمضى زمن على الجماعة وهى فى هياج تعتورها حالة هبوط تجعلها آلة صماء غير شاعرة يحركها الالقاء فى نفسها ولذلك يتعذر تأثيمها فلسفياً كيفما

كان الحال وانما جريت فى الكلام على استعمال هذا الوصف غير الصحيح لانى أقرأه فى بعض كتب علماء النفس الحديثة . نعم ان بعض اعمال الجماعات تعتبر جرائم من حيث هى لكن كما يعتبر عمل النمر الذى يلتهم الهندى بعدأن يكون قد تركه لصغاره يفرحون بتمزيقه

تصدر الجرائم عن الجماعة غالباً بسبب تحريض قوى . ويعتقد الذين ارتكبوها من أفرادها انهم قاموا بواجب كان مفروضاً عليهم وهـذا ليس شأن الجناة فى الاحوال الاعتيادية وتاريخ جرائم الجماعات يوضح ذلك بأجلى بيان

فمن أمثلة ذلك قتل موسيو (لونى) مدير سجن (الباستيل) وواقعة الحال انه بعد استيلاء الثائرين على هذا الحصن أحاطت الجماعة الثائرة بالمدير المشار اليه وصارت الضربات تتساقط عليه من كل جانب . وهذا يشير بشنقه وذاك يضرب عنقه وثالث يربطه فى ذيل فرس وهكذا . وبينما هو يدافع عن نفسه فرطت منه رفسة أصابت واحداً من الجماعة . اذ ذاك اقترح أحدهم أن يقطع المضروب رأس الضارب فهلل الجمع بالموافقة قال راوى الواقعة «وكان المضروب طباخا خاليا من العمل ويقرب من أن يكون بهلولا ذهب الى (الباستيل) لينظر ما ذا يجرى هناك . فلما سمع الاجماع ظن ان الفعل مما تقضى به الوطنية . وانه ينال وساما اذا أعدم ذلك الوحش . ثم ناولوه سيفاً ضرب به عنق المدير وكان غير مشحوذ فلم يقطع فألقاه وأخرج من جيبه سكيناً صغيرة ذات مقبض اسود واستعان بخبرته فى تقطيع اللحوم فساعده الحظ وأتم عمله »

ومن هذا المثال يظهر لك كيف تصدر أفعال الجماعة فقد انقادت هنا الى تحريض قوى بالاجماع عليه واعتقد القاتل انه اتى عملا شريفاً اعتقاداً مكنه من نفسه ذلك الاجماع . وقد يكون مثل هذا العمل آثماً بحكم القانون لكنه ليس كذلك فى حكم علم النفس

أما الصفات العامة للجماعات الجارمة فهى بعينها الصفات التى شاهدناها فى غيرها . من قابلية التأثر . والتصديق . والتقلب والتطرف فى المشاعر طيبة

كانت أو رديئة . والتخلق ببعض الاخلاق الخاصة وغير ذلك

وستظهر لنا هذه الصفات كلها فى احدى الجماعات التى تركت فى تاريخنا اقبح ذكرى محزنة وهى جماعة شهر سبتمبر[١] وبين هذه الجماعة وجماعة (سانت بارثلمى) شبه عظيم . وانى أنقل شرح الواقعة عن موسيو (تاين) فهو الذى استخلصها من المفكرات التى كتبت أيام حدوثها

لا نعرف بالتحقيق الآمر والمحرض على تخلية السجون بقتل من فيها وسواء كان هو (دانتون) كما هو المظنون أو غيره[٢] فالذى يهمنا هو انه وجد تحريض قوى تأثرت به الجماعة التى وليت المقتلة

كانت تلك الجماعة مؤلفة من نحو ثلاثمائة سفاك كلهم اشتات فهى تمثل الجماعة المختلفة العناصر اكبر تمثيل اذ لم يكن فيها من الغوغاء الا نفر يسير والباقون من اصحاب الحوانيت والصناع فى كل حرفة وكل مهنة من حذائين وقفالين وحلاقين وبنائين ومستخدمين وسماسرة وغيرهم كلهم متأثرون بالتحريض الذى وقع عليهم. كالطاهى الذى مر ذكره . وكلهم يعتقد أنه قائم بواجب وطنى . وقد قاموا بعملين . فكانوا قضاة وجلادين . ولكنهم لم يروا انفسهم من الجناة أبداً . بل وقر فى نفوسهم انه واجب من اكبر الواجبات . وأول ما بدأوا به أن شكلوا محكمة . هنالك ظهرت بساطة روح الجماعات وبساطة عدالتها . ذلك أن المحكمة رأت عدد المتهمين كبيراً فقررت أولا قتل الشرفاء والقسوس والضباط وخدام الملك وبالجملة قتل جميع الذين يعتبرون فى نظر كل وطنى جناة بمقتضى صناعتهم . وان يكون القتل جملة من دون احتياج الى حكم خاص . وأما الباقون فيحكم عليهم

( ) هى كارثة شهيرة وقعت أيام الثورة الفرنساوية فى باريس يوم ٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ بتحريض رجل يقال له (مارات) على الارجح أصله طبيب انقلب صحافياً دمويا صرفا فكان يطلب اعدام مائتين وسبعين الف نفس مدعياً ان فى ذلك فداء الوطن

(٢) هو (مارات) على ما ذكر فى معاجم التاريخ كما تقدم

بناء على سمعتهم أو شهرتهم . فلما اطمأنت نفوس الجماعة بهذا القرار انطلقت تنفذ ما حكم به القضاء فبرزت كوامن القسوة والتوحش اللذين شرحناهما من قبل . والتوحش يزداد فظاعة وعنفاً فى المجامع . الا أن الغرائز الهمجية لا تمنع من ظهور مشاعر تناقضها كما هو الشأن فى الجماعات . ولذلك كان يوجد فى تلك الجماعة من عاطفة التأثر ما يبلغ فى شدته تلك القسوة الهائلة .

كان لأولئك القتالين عطف صناع باريس ولطف شعورهم من ذلك أن احدهم علم أن المسجونين لم يذوقوا الماء منذ ست وعشرين ساعة فشرع فى قتل السجان لولا شفاعة السجناء وكانوا اذا برأت المحكمة التى أقاموها واحداً من المتهمين فرحوا وهللوا وانهالوا عليه يقبلونه وصفقوا تصفيقاً طويلا ثم انقلبوا يقتلون غيره اكداساً . كانوا يقتلون والسرور لا يفارق محياهم . يغنون ويرقصون ويعدون المقاعد للنساء لتشاهد وهى فرحة قتل الشرفاء . وكان لهم عدل من نوع خاص يدلك عليه أن احد الوكلين بالتقتيل شكا من ان النساء لا يشاهدن القتل لبعدهن عن مكانه . وان القليل من الناس هو الذى ينال حظ ضرب الشرفاء . فصوب الجميع شكواه وقرروا ان يمشى المتهمون الهوينا بين صفين من القتالين . وأمروا هؤلاء أن لا يضربوهم الا بظاهر السيوف حتى يطول امد العذاب . وكان فريق يأتى بالمتهمين عراة كما ولدتهم الامهات ثم يمزقون اجسامهم مدى نصف ساعة كاملة فاذا تمت للجميع مشاهدة هذا المنظر أجهزوا على المعذبين فبقروا بطونهم

ومع ذلك كنت تشاهد الامانة لا تزال ملازمة للقاتلين فكانوا يظهرون من الفضائل ما ذكرناه للجماعات من قبل ويأبون أن يتناولوا شيئاً من نقود المقتولين وحليهم بل يقدمونها للجنة

وكانت بساطة التعقل التى انفردت بها روح الجماعات تظهر فى أفعالهم . من ذلك انهم لما فرغوا من قتل الالف والمائتين أو الالف وخمسمائة العدو للأمة لاحظ بعضهم ان السجون الأخر تضم أناساً لا فائدة منهم وان الاولى اعدامهم

فسارعت الجماعة الى الموافقة على هذا الرأى . وكان من فى السجون الأخر أناساً من الشحاذين والهمل (المتشردين) والاولاد فرأت الجماعة انه لا بد من وجود أعداء للأمة بينهم كامرأة رجل كان قد قتل نفساً بالسم اذ قال بعضهم « لا بد انها متغيظة من وجودها فى السجن . ولو تمكنت لوضعت النار فى باريس ولا بد أن تكون قد قالت ذلك . بل قالته . اذن حق عليها الاعدام » سرى هذا القول فى النفوس كالحجة الناصعة . وهرولت الجماعة فقتلت كل من كان فى تلك السجون وبينهم نحو خمسين غلاما ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقالوا فى قتلهم انهم اذا عاشوا لا يبعد أن يصيروا من أعداء الامة فالواجب التخلص من شرهم .

ولما أتم القاتلون عملهم بعد أن زاولوه مدة أسبوع كامل فكروا فى الراحة واعتقدوا انهم خدموا الوطن خدمة يستحقون الجزاء من أجلها . ورغبوا الى حكومة ذلك الزمن ان تكافئهم ومنهم من طلب وساما

وفى تاريخ ثورة ١٨٧١ أمثلة كثيرة كالتى قدمناها وسنرى كثيراً غيرها مادام سلطان الجماعات ينمو ويعظم وسلطان الحكومة ينزوى ويضعف

الفصل الثالث

العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

الصفات العامة للعدول ـ فى ان الاحصاء يدل على انه لا تلازم بين قراراتهم وكيفية تشكيلهم ـ كيف يتأثر العدول ـ ضعف تأثير الدليل العقلى ـ طريقة الاقناع التى استعملها أشهر المحامين ـ الجرائم التى يرأف العدول بمن ارتكبها أو التى يقسون من أجلها ـ فائدة العدول وخطر تبديلهم بالقضاة

—

لما كان لا يتيسر لنا ذكر جميع أنواع العدول فى هذا الكتاب رأينا أن

نقتصر على اهمها وهم العدول المحلفون امام محاكم الجنايات وهم أحسن مثال يمثل به للجماعات المختلفة العناصر التى لها اسم خاص . واذا بحثنا عن الصفات التى لها نجد قابلية التأثر . وسيادة المشاعر الغريزية . وضعف التأثر بالمعقول . والانصياع الى القواد . وهكذا . وسنبين اثناء بحثنا فى هذه الجماعات بعض الغلطات التى يرتكبها من لم يكن خبيراً بعلم روح الجماعات لما فى ذلك من الفائدة

نجد اولا فى العدول المحلفين من حيث القرارات التى يصدرونها مثالا حسنا يبين ان تأثير الاذكياء الذين يوجدون فى جماعتهم ضعيف لما تقدم من انه لا تأثير للعقل المستنير فى رأى الجماعة اذا كان فى موضوع غير فنى . وان رأى جمع من العلماء وأهل الفن فى موضوع عام خارج عن علومهم وفنونهم لا يختلف كثيراً مع رأى جمع من البنائين أو البدالين فى ذلك الموضوع . كانت الحكومة قبل سنة ١٨٤٨ تعتنى فى كثير من الاوقات بانتقاء العدول من المستنيرين . فتختارهم من بين المدرسين والموظفين ورجال الادب وامثالهم وهم الآن ينتخبون خصوصاً من صغار الباعة وصغار المحترفين والمستخدمين . وقد اندهش الكتاب الاختصاصيون اذ دل الاحصاء على تشابه القرارات وان اختلف تشكيل جماعة العدول وأقر القضاة أنفسهم بهذه الحقيقة مع كونهم من أعداء هذا النظام واليك ما كتبه موسيو (بيراردى جلاجو) أحد رؤساء محاكم الجنايات فى مفكراته « أصبح الآن اختيار العدول فى يد نواب المجالس البلدية وهم يرفضون هذا ويقبلون ذاك على حسب أميالهم السياسية وأحوال الانتخابات . وصارت أغلبية العدول من تجار أقل درجة ممن كانوا ينتخبونه قبل الآن ومن مستخدمى بعض المصالح . ومع هذا لم تتغير روح العدول ولا تزال قراراتهم كما كانت عليه . لان جميع الافكار تمتزج بجميع المهن فى وظيفة القضاء ولان كثيراً من المنتخبين يجتهدون اجتهاد المؤمن الحديث فى الايمان . ولأن الطبقة الدنيا لا تخلو من أهل المروآت »

والذى يهمنا من هذا القول هو النتيجة لصحتها لا المقدمات لضعفها . ولا

غرابة فى هذا الضعف لان المحامين والقضاة لا يعرفون فى الغالب روح الجماعات ومنها العدول . والدليل على ذلك ماذكره الرئيس المشار اليه من أن (لاشو) وهو من أشهر المحامين أمام محاكم الجنايات كان لا ينفك عن اختصام جميع العدول المستنيرين . وقد برهنت التجارب . وما كان لغيرها أن يقيم هذا البرهان . على ان ذلك العمل كان عقيما حتى ان النيابة والمحاماة تركتا هذه العادة فى باريس . ولم تتغير القرارات كما أشار اليه موسيو (جلاجو) فلا هى أحسن مما كانت عليه ولا هى اردأ منه

العدول كغيرهم من الجماعات يتأثرون بالمشاعر كثيراً ولا يتأثرون بالمعقول الا قليلا فهم كما قال أحد المحامين «لا يثبتون امام امرأة ترضع طفلها أو امام صغار يتامى اذا نظروا اليهم »

قال موسيو (جلاجو) : ويكفى أن تكون المرأة ظريفة لتنال عطف العدول

العدول قساة القلوب على من يرتكب الجرائم التى يخشون هم منها . وهذه الجرائم هى التى تهم الهيئة الاجتماعية ـ ورحماء بمرتكبى الجرائم التى مصدرها الغيرة والحب وهكذا .

فقلما يقسون على البنات الامهات اللاتى يقتلن مواليدهن ولا على البنت يخدعها الخادع ويهجرها فترميه بماء النار . وذلك لان العدول يشعرون انه لاخطر من مثل هذه الجرائم على الهيئة الاجتماعية وانه مادام القانون لا يحمى البنت التى هجرها من خدعها يكون نفع جنايتها أكبر من ضررها لأن فى ذلك للخداع مزدجراً (١)

(١) مما تجب ملاحظته ان هذا الفرق الذى جاء به العدول لا عن قصد بين الجرائم المضرة بالهيئة والتى لا تكاد تضرها لا يخلو من صواب اذ يجب أن يكون الغرض من القوانين الجنائية حماية الهيئة من المجرمين المضرين بها لا الانتقام لها مطلقاً . غير ان الغالب على واضعى قوانيننا وعلى قضاتنا هى فكرة الانتقام التى كانت سائدة فى زمن الشرائع القديمة . ودليلنا على هذا الميل فى قضاتنا ان الكثير منهم لا يزال يأبى العمل بقانون (بيرانجيه) الذى يبيح ايقاف التنفيذ

والعدول كبقية الجماعات يبهرها النفوذ . لاحظ الرئيس (جلاجو) انهم ديموقراطيون فى جمعهم شرفاء فى عواطفهم فالاسم . والحسب . والثروة الطائلة . والشهرة والاستعانة . بمحام ذائع الصيت . وكل شيء يتفرد به الرجل ويظهر به كل ذلك عدة كبيرة وسلاح قوى فى يد المتهمين

أراد بعضهم بيان الطريقة التى ينبغى استعمالها فى هـذا المقام فوصف احد محامى الانجليز وكان ذا شهرة فائقة بنجاحه أمام محاكم الجنايات ومما قاله :

أول مايجب على المحامى اللبيب الاهتمام به تعمد التأثير على شعور العدول . والاقلال من التقرير والاستدلال أو اختيار السهل البسيط من الأدلة العادية كما هو الشأن مع بقية الجماعات (كان يترافع وهو يرقب حركات العدول وتحين مناسبة الوقت فكان يقرأ فى وجوههم أثر كل جملة وكل كلمة بما أوتى من الفراسة والتجارب ليعرف ماينبغى بعد ذلك وكان يتفرس أولا العدول الذين صاروا من جانبه ويخطو معهم فى خطابه الخطوة الاخيرة التى تمكنه من انحيازهم اليه ثم يلتفت لمن يشعر منه بالانحراف عنه ويجتهد فى استكناه سبب ميله عن المتهم وهذا أدق مافى عمل المحامى . لان الاسباب التى تبعث الرغبة فى الحكم على رجل بالعقوبة كثيرة بقطع النظر عن كون الحكم عدلا أم ظلما)

ولقد تلخص فن الخطابة فى هذه الاسطر على قلتها وبان ان السبب فى عدم تأثير ماحضر منها من قبل هو اضطرار الخطيب الى تغيير الكلام طبقاً لأثره فى نفوس السامعين

وليس من الضرورى أن يكسب الخطيب ميل جميع العدول . بل يكفيه

= فلا يقضى المحكوم عليه عقوبته الا اذا عاد فأجرم مع ان جميع القضاة يعلمون جيداً ان تنفيذ العقوبة الاولى يجر حتما الى العود كما يؤيد ذلك الاحصاء . (لعل ذلك مبالغ فيه م) وكأنى بالقضاة يعتقدون انهم اذا أفلتوا محكوما عليه لا يكونون قد انتقموا للأمة فهم يفضلون خلق مجرم يتعود الاجرام على عدم الانتقام

اكتساب قلوب الرؤساء الذين هم قادة البقية وبهم يتكون رأى الاغلبية . فالذى يقود العدول انما هم نفر قليل منهم كما يقع ذلك فى كل الجماعات . قال المحامى الذى مر ذكره «عرفت بالتجربة انه متى حان وقت اصدار القرار يكفى واحد أو اثنان من أهل العزيمة فى الرأى لاقناع البقية »

فالواجب اذن اقناع هذين الاثنين أو الثلاثة باستعمال الحذق فيما يلقى فى نفوسهم . وأول ما ينبغى فعله هو الاجتهاد فى اعجابهم لأن الرجل فى الجماعة اذا أعجبه المتكلم صار قريب الاقتناع . وقبل بالسهولة الادلة التى تعرض عليه كيفما كانت فقد قرأت فى بعض الكتب عن موسيو (لاشو) الحكاية الآتية (من المعروف عنه انه كان فى مرافعاته أمام محكمة الجنايات لا يفتر عن ملاحظة العدلين أو الثلاثة الذين كان يتفرس فيهم انهم أصعب مراساً من البقية وانهم أهل النفوذ فيهم . وكان يتمكن غالباً من التغلب عليهم واتفق له مرة فى الريف انه لحظ بين العدول واحداً استعمل لاقناعه أشد وسائل الخطابة ثلاثة ارباع الساعة على غير جدوى . وكان جالساً فى أول الصف الثانى وهو السابع حتى كاد اليأس يدرك الخطيب وبينما لاشو مندفع فى البيان والبلاغة تتدفق من فيه اذا به قطع الكلام فجأة والتفت الى رئيس المحكمة قائلا «سيدى الرئيس أتسمحون فتأمرون باسدال الستار الذى أمامنا فان الشمس تخدش عينى حضرة العدل السابع» فاحمر وجه العدل السابع وتبسم وشكر وقد صار من صف الدفاع)

قام فى هذه الايام كثير من الكتاب ومنهم القطاحل وشددوا النكير على نظام العدول مع ان وجودهم هو الضمان الوحيد الذى يقينا شر الخطأ الكثير الوقوع من طائفة لا رقيب عليها [1] ومنهم من يذهب الى وجوب حصر اختيار العدول فى طبقة المستنيرين ولكنا أقمنا الدليل على ان قراراتهم فى هذه الحالة

(١) المحاكم عندنا هى المصلحة الوحيدة التى تكاد تكون لا مراقبة على أعمالها ومع ما أتته الامة الفرنساوية من الثورات لا يوجد فيها حتى الآن قانون مثل قانون (الافراج) الذى تفتخر به الامة الانكليزية . نحن قد نفينا

لن تختلف مع التى تصدر الآن . ومنهم من يتذرع بالخطأ الذى يقع من العدول فيذهب الى تبديلهم بالقضاة . ونحن لا ندرى كيف غاب عنهم ان ذلك الخطأ الذى بالغوا فى نسبته الى العدول انما سبقهم به القضاة . لان المتهم لا يمثل بين يدى أولئك الا بعد اعتباره جانياً من كثير من هؤلاء . من قاضى التحقيق ورئيس النيابة ودائرة الاتهام . الا يرى انه لو سلم الحكم النهائى عليه الى القضاة بدل العدول فاتته الفرصة الوحيدة للوصول الى اظهار براءته . ان يخطئ العدول فقد أخطأ القضاة من قبلهم . فلوزر على هؤلاء وحدهم فى كل خطأ قضائى مفزع كالحكم الذى صدر أخيراً على الطبيب (فلان) اذ اضطهده أحد قضاة التحقيق المعروف بقصر العقل لان شابة تكاد تكون من البله اتهمته بأنه أسقط حملها مقابل جعل قدره ثلاثون فرنكا . ولولا ثورة الرأى العام وصدور العفو عنه لذلك عقب الحكم عليه لارسل الى سجن الاشغال الشاقة . ظهر فى هذه الحادثة ان خطأ الحكم كان فاحشاً بمقدار اجماع الناس على وضوح براءة المحكوم عليه . وكان القضاة انفسهم مقتنعين بذلك لكن تحزبهم لطائفتهم دفعهم الى استنفاد كل وسيلة ليمنعوا العفو عن ذلك البرىء . والحاصل انه متى كانت الدعوى ذات أحوال خصوصية فنية لا يدركها العدول ترى هؤلاء مضطرين

= جميع الظالمين . ولكنا أقنا فى كل مدينة قاضياً يتصرف فى شرف أهل الوطن وحريتهم كما يشاء . فيقضى تحقيق خرج حديثاً من مدرسة الحقوق وله القدرة المنفردة على سجن أعلى الوطنيين منزلة كما يريد لمجرد الشبهة منه فى اجرامهم . وليس من يحاسبه على عمله . وله القدرة على ابقائهم فى سجنهم ستة أشهر بل سنة بحجة التحقيق ثم يخلى سبيلهم ولا ضمان لهم عليه ولا يكلف لهم باعتذار يفعل ذلك بمقتضى (أمر القبض) وهو مساو (لخطاب السجن) الذى عرفه آباؤنا الاولون غير ان هذا الاخير كان لا يجوز استعماله الا للعظماء من الاكابر وأما الاول فهو اليوم فى يد طبقة من الوطنيين هم بعيدون جداً عن أن يكونوا الاكثر تهذيباً والاكبر استقلالا

الى الاخذ بأقوال النيابة العمومية لاعتقادهم ان الذى حقق التهمة قضاة لهم خبرة تامة بمثل هذه المسائل . وليت شعرى من يكون المخطىء الحقيقى حينئذ آلعدول أم القضاة يجب أن نحرص على العدول حرصنا على النفيس فربما كانوا هم الجماعة التى لا يمكن أن يقوم الفرد مقامها . وهم الذين يتيسر لهم وحدهم أن يخففوا من شدة القانون . فهو بمقتضى كونه واحداً لجميع الناس أعمى يضع القواعد مطلقة ولا يعرف الشواذ . أما القضاة فلا تدخل الشفقة عليهم من باب . ولا يعرفون الا النص . وهم قساة بمقتضى صناعتهم . فلا يفرقون فى الحكم بين وغد ثقيل النفس المجرمة وفتاة هجرها من غواها وعضها الفقر فوارت مولودها لكن العدول يشعرون بفطرتهم ان تلك الفتاة التى خدعت أقل اجراما من الذى خدعها ولا سلطان للقانون عليه . وانها جديرة بكل عطف وحنان

لقد عرفت حقيقة روح الطوائف كما عرفت روح الجماعات الاخرى . ولكنى لم أوفق الى معرفة حالة اكون متهما فيها بجرم وافضل القضاة على العدول ليحكموا فيها . لان لى بعض الامل فى البراءة أمام هؤلاء والامل ضعيف امام أولئك . حذار من سطوة الجماعات وحذار ثم حذار من سطوة بعض الطوائف فقد تلين الاولى ولكن الثانية لا تلين أبداً

الفصل الرابع

جماعات الانتخاب

الصفات العامة لجماعات الانتخاب ـ طريقة اقناعها ـ الصفات التى يجب أن تكون للمترشح ـ ضرورة النفوذ ـ السبب فى أن العملة والصناع قلما ينتخبون النائب من بينهم ـ سلطان الالفاظ والجمل على الناخب ـ صورة المناقشات الانتخابية ـ كيف يتكون رأى الناخب ـ سلطان اللجان ـ فى انها تمثل أشد صور الاستبداد ـ لجان الثورة الفرنساوية ـ من المتعسر الاستعاضة عن الاقتراع العام كيفما كانت

قيمته ضعيفة ـ فى بيان أن النتيجة تكون هى بذاتها اذا قصر حق الانتخاب على فريق من الاهلين ـ فى معنى الاقتراع العام عند كل أمة

—

من الجماعات المختلفة العناصر جماعات الانتخاب أعنى المجامع التى تنتخب القائمين ببعض وظائف معينة ولما كان عملها محصوراً فى دائرة محدودة وهو اختيار واحد من بين أفراد معينين لا يظهر فيها الا بعض الصفات التى تقدم بيانها . فالذى يشاهد عندها ضعف القدرة على التعقل . وفقدان ملكة النقد . وسرعة الغضب . والتصديق . والسذاجة . ويرى فى قرارتها أثر القواد وأثر العوامل التى مرّ ذكرها . أى التوكيد . والتكرار . والنفوذ . والعدوى

فلنبحث فى طريقة اقناعها لانا اذا عرفنا أنجع الوسائل فى ذلك وضحت لنا روحها تمام الوضوح

أول صفة يجب أن يكون للمترشح هى النفوذ . ولا يقوم مقام النفوذ الذاتى اذا فقد الا النفوذ المكتسب من الثروة . حتى أن الذكاء الفائق بل النبوغ ليسا من الوسائل التى تؤدى الى النجاح كثيراً فى هذا الباب

ولا غنى للمترشح عن النفوذ لأنه العدة الكبرى التى تمكنه من التسلط على النفوس بدون أن يتناظر فيه والسبب فى كون العملة والصناع لا ينتخبون من ينوب عنهم من صفوفهم هو أنه لا نفوذ عندهم لمن خرج من بينهم واذا اختاروا فى النادر واحداً من طبقتهم فانما ذلك لكى يضربوا به أحد العظماء كمعلم كبير الشأن ممن لهم سطوة على الناخب دائما فينزع هذا الى مخالفته متخيلا انه يصير بذلك سيداً عليه لحظة من الزمان

الا أن النفوذ وحده لا يضمن النجاح لصاحبه فى الانتخاب لأن الناخب يجب أن يتملق ويمنى بنيل ما يصبو اليه من الرغبات فينبغى أن يساق اليه من التملق ما يعجزه حمله وان لا يحجم عن التكفل له بما يخرج عن حد المعقول من الوعود والاماني . فان كان عاملا فكل ذم فى معامله قليل . أما المترشح المزاحم

فانه يجب أن يدخل اليه من طريق التوكيد والتكرار والعدوى لاثبات أنه أخس الناس وأنه مجرم أثام . ومن البديهى أنه لا محل لاقامة دليل ما على ذلك فان كان الخصم لايعرف روح الجماعات مال الى تبرئة نفسه بالحجة والبرهان بدل أن يقابل التوكيد بالتوكيد ومن ثم يفقد كل أمل فى النجاح

أما البرنامج الذى يحرره المترشح ببيان ما ينوى من الاعمال فينبغى أن لا يكون صريحاً حتى لا يتخذه خصومه حجة عليه . لكن يجب أن يطيل فى البرنامج الشفهى ما استطاع ولا خوف عليه من الوعد باجراء اعظم الاصلاحات فان ذلك يؤثر حالا فى نفوس الناخبين وهو فى حل منه آجلا اذ القاعدة المطردة ان الناخب لا يبحث أبداً فى هل المنتخب جرى طبقاً لتصريحاته التى كانت السبب فى انتخابه

ومن هنا يتبين أن جميع عوامل الاقناع التى تقدم ذكرها هى فى جماعات الانتخاب . بقى علينا أن نذكر الالفاظ والجمل مما بينا تأثيره السحرى فى النفوس الخطيب الذى يعرف كيف يتصرف بها يمكنه أن يوجه الجماعة حيث يشاء . فلمثل (رأس المال الدنس) و (أولئك المحتالين الادنياء) و (العامل الجليل) و (جعل الاموال شائعة بين الجميع) وهكذا . لمثل هذه الالفاظ تأثير لا يزال كبيراً وان كان الناس قد صاروا يمجونها . فاذا كان المنتخب ممن أسعدهم الحظ ووفق لايجاد صنعة جديدة خالية من المعنى المحدود لتصيب بذلك أهواء النفوس المختلفة كان نجاحه باهراً وفوزه محتما . والذى أوقد نار الثورة الدموية فى اسبانيا سنة ١٨٧٣ انما هو لفظ من تلك الالفاظ السحرية ذات المعانى المضطربة التى يفهم منها كل واحد حسب ما يشتهى . ولقد يحسن بنا ايراد كيف كان ذلك نقلا عن أحد كتاب ذاك الحين قال « ظن المتطرفون أن الجمهورية الجامعة للسلطة عبارة عن ملوكية خفية فارضاهم مجلس الامة وقرر بالاجماع أن تكون الجمهورية اتحادية من غير أن يعرف أحدهم معنى ما أقر عليه . لان الصنيعة كانت قد اخذت بلب الناس اجمعين فسكروا بخمرتها . وغالوا فى طلاوتها وقالوا لقد قامت

فى الارض مملكة الفضيلة والسعادة » . وكان الجمهور يرى من المسبة العظيمة ان خصمه لا يعترف له بنعت (الاتحادى) . وكان بعض الناس يسلم على بعض بقوله (سلام على الجمهورى الاتحادى) . أما المعنى الذى كان يحضرهم من هذه التسمية فمنهم من كان يذهب الى أنه عبارة عن اطلاق الاقاليم من كل قيد ليحكموا أنفسهم باستقلال . ومنهم من كان يظن أن النظام الجديد يشبه نظام الولايات المتحدة فى امريكا . واخرون يرون أنه توزيع السلطة وتجزئة طريقة الحكم فى البلاد . والبعض كان يفهم أن كل سلطة قد بادت وان الوقت حان لتصفية حساب الهيئة الاجتماعية . ونادى الاشتراكيون فى برشلونه وفى الاندلس باستقلال كل قرية بنفسها . وذهبوا الى وجوب انتخاب عشرة آلاف نائب عن جميع البلاد الاسبانية كلهم أحرار لا يحكمهم غير أنفسهم . وقالوا بالغاء الجيش والشرطة ولم يمض الا قليل حتى أخذت الثورة تمتد فى الاقاليم الجنوبية من مدينة الى مدينة ومن قرية الى أخرى . فكانت كل بلدة فرغت من اعلان استقلالها تعمد الى تخريب الاسلاك البرقية والسكك الحديدية لتقطع المواصلة بينها وجيرانها ومدريد ولم تبق نزلة حقيرة الا نزعت الى الاستقلال بنفسها . وحل محل الاتحاد تمزق فى الاقاليم علاماته التوحش والنار والدماء فأقيمت المذابح فى كل صقع وناد

أما تأثير المعقول فى جماعات الانتخاب فلا يجهل ضعفه الا الذين لم يطلعوا مرة على ما يجرى فى اجتماعات الانتخابات لانها لا تحتوى على شىء غير تناول التوكيدات المتناقضة . والشتائم والمخازى . ولكنها مجردة عن كل حجة وبرهان . واذا اتفق وساد السكون لحظة فذلك لان احد الحاضرين ممن لا يقتنعون بالسهولة خرج وسط الجمع ليلقى على المترشح سؤالا يعجزه الجواب عنه . وذلك يلذ دائما للسامعين . الا أن هذه اللذة لا تدوم طويلا لان صوت السائل لا يلبث أن يغيب فى صخب المعارضين وانى ناقل للقراء عن الجرائد اليومية شيئا مما يجرى فى الاجتماعات العمومية ليكون مثلا على ما تقدم . (اقام بعضهم اجتماعا وطلب من الحاضرين انتخاب الرئيس فقامت القيامة واسرع الفوضويون الى

محل اللجنة ليستولوا عليه ووقف فى وجههم الاشتراكيون فتلاكم الفريقان وانهالت الشتائم من مشاء . وبائع ذمته . وهكذا وخرج احد الحاضرين وعينه موزمة . وانتهى الحال ببقاء اللجنة فى مكانها وسط الهياج والاصطخاب . وتمت الرئاسة للوطنى فلان . واخذ الاشتراكيون يقطعون عليه الكلام وهو يحمل عليهم حملة منكرة . فقابلوه بالوغد . قاطع الطريق . الدنىء وهكذا من النعوت . فقابل الخطيب ذلك بنظرية مقتضاها أن الاشتراكيين من البله أو النصابين)

وهذا مثل آخر (نظم الحزب المنحاز لالمانيا مساء أمس فى قاعة التجارة بشارع كذا اجتماعاً كبيراً استعداداً لعيد عمال أول شهر مايو . وتقرر أن يكون الهدوء سائداً والسكون شاملا وقد طعن الوطنى فلان على الاشتراكيين بأنهم أوغاد نصابون . وعليه تشاتم الخطباء والحضار وانتقلوا من المشاتمة الى الملاكمة فاشتركت الكراسى والموائد فى الخصام الخ)

ولا يحسبن القراء ان هذا النوع من الخطابة خاص بفريق من الناخبين . وانه آت من درجتهم الاجتماعية بل تلك صورة تتصف بها المناظرة فى كل جمعية أيا كانت حتى التى تتألف من مستنيرين . وقد بينت إن الافراد فى الجماعات يتقاربون الى حد التساوى فى ملكات العقل . ونحن نجد الدليل على ذلك فى كل مكان . اليك ما دار فى اجتماع كان الحاضرون فيه كلهم من الطلبة نقلا عن جريدة الطان الصادرة فى ١٣ فبراير سنة ١٨٩٥ « كلما أوغل الليل ازداد الهياج ولا أظن ان خطيباً واحداً لفظ جملتين من دون أن يقطع الكلام عليه اذ الصراخ كان يعلو فى كل لحظة تارة هنا وتارة هناك وآونة من جميع الجهات هؤلاء يصفقون وأولئك يصفرون وكانت المناقشات الشديدة تحتدم بين السامعين فترى العصى تهدد الرؤوس والضرب على الموائد كالنغمة . والاصطخاب مقذوفا الى المشوشين . هذا يقول أخرجوه . وذاك يصيح . الى منبر الخطابة ثم قام موسيو فلان وجعل يخاطب الحضور بقوله هذا اجتماع ما أشد قبحه وجبنه .

هذا اجتماع وحشى • دنئ • رذيل • متعصب . ثم أعلن انه سيهدمه الخ)

هنا يرد على الخاطر كيف يتمكن الناخب من تكوين رأيه وسط هذه الضوضاء • غير ان هذا الخاطر يؤذن بأن صاحبه يجهل تمام الجهل مقدار الحرية التى توجد فى المجامع • وان آراء الجماعات انما تأتيها من طريق التسلط عليها لا من طريق الاقناع • والذى يكون الآراء ويجرى الانتخاب فى الحالة التى تبحث فيها هى اللجان • واللجان يقودها فى الغالب بائعو النبيذ لما لهم من السيطرة على العمال بواسطة تسامحهم معهم فى تأجيل ثمن مايشربون . قال موسيو (شيرر) وهو من اكبر انصار الديموقراطية فى الوقت الحاضر « أتعرفون ما هى لجنة الانتخاب • انها عبارة عن مفتاح نظاماتنا وأهم قطعة من الآلة السياسية عندنا ان الذى يحكم فرنسا الآن هى اللجان [1] »

لذلك ليس من الصعب جداً التسلط على اللجان اذا كان المترشح مقبولا وذا يسار يفى بما يحتاج اليه فى مثل ذلك • فثلاثة ملايين فرنك كفت باعتراف المتبرعين أنفسهم لانتخاب القائد (بولونجيه) فى مقاطعات عدة

تلك روح جماعات الانتخاب مثلها مثل روح بقية الجماعات لا أحسن ولا أردأ

---

(١) اللجان على اختلاف مسمياتها كالنوادى والشركات هى أشد الجماعات خطراً من حيث المقدرة . فهى التى تمثل أعظم جمعية لا أثر للشخصية فيها . ولذلك كانت أقسى الجماعات يداً واكبرها تسلطا فلا يشعر القواد الذين يتكلمون بلسان اللجان ان هناك تبعة ترجع اليهم . فهم يضربون فى كل صوب آمنين . وماكان يخطر على بال أشد المستبدين عسفاً أن يأمر بمثل ما أمرت به اللجان الثورية التى فرقت شمل رجال (الاتفاق) وحصدتهم حصداً كما قال (باراس) ظل (روبسبيير) قابضاً على الحكم كله بيده طول الزمن الذى كان ينطق فيه باسم اللجان فلما اختلف معها بسبب التشدد فى الرأى وانفصل عنها أدركته الداهية . أجل ان حكم الجماعات هو حكم اللجان أعنى حكم القواد ولن يهتدى الانسان الى حكم أشد وأقسى •

وعليه فانى لا أستخلص مما تقدم نتيجة ضد الانتخاب العام . ولوان الامر بيدى لابقيته كما هو لأسباب عملية تنتزع من بحثنا فى روح الاجتماع . فلنذكرها لا يسع أحداً انكار مضار الانتخاب العام لانها واضحة كالشمس . فلايمارى فى ان المدنية عمل طائفة صغيرة من أهل العقول الراقية شبيهة بقمة هرم تتسع طبقاته كلما انحطت الدرجة العقلية . وتلك الطبقات تمثل الطبقات البعيدة للامة وعظمة المدنية لا تتوقف طبعا على رأى العناصر الوضيعة التى ليس لها من القيمة الا كثرة العدد . ومن المحقق أيضاً ان آراء الجماعات خطرة فى غالب الاحيان فقد كلفتنا حتى الآن غارات كثيرة على بلادنا واذا تم لها ما تعده من فوز الاشتراكية فمن المظنون ان اهواء سيادة الامة تكلفنا أضعاف ذلك أيضاً

الآ ان هذه المطاعن القوية نظراً تفقدقوتها تماما من الجهة العملية اذا فكرنا فى قوة الآراء التى لا تغالب متى صارت عقيدة من العقائد وعقيدة سيادة الجماعات لا تختلف من الجهة النظرية مع العقائد الدينية التى وجدت فى القرون الوسطى من حيث الضعف فى كل غير ان ما كان لهذه من القوة فى ذلك الزمان هو للاولى فى هذه الايام فهى منيعة حينئذ كما كانت أفكارنا فى تلك القرون لنفرض ان رجلا من أهل الافكار الحرة أى المطلقة السراح وجد فى القرون الوسطى أتظن انه كان يتحرك لمقاومة الافكار الدينية المتمكنة فى القوم بعد أن يرى مالها من السيادة المطلقة . او كان يفكر فى انكار وجود الشيطان وحرمة يوم السبت اذا مثل امام قاض يريد احراقه بالنار بتهمة انه حازب الشيطان أو ذهب الى المعبد يوم السبت . انه لا مناقشة مع الجماعات كما انه لا جدال مع العواصف . ولعقيدة الاقتراع العام فى ايامنا من القوة ما كان للعقائد الدينية فى ذلك الزمان . فترى الخطباء والكتاب يذكرونه مقرونا بالتجلة والاحترام مصحوبا بملق لم يعرفه لويز الرابع عشر . وجب اذن ان يسار معه كما يسار مع العقائد الدينية . وللزمان ان يفعل فى الجميع فعله على انه لا فائدة من التحفز لزعزعة هذه العقيدة مع وجود ما يؤيدها فى الظاهر . ولقد أصاب موسيو

(توكفيل) حيث قال « ليس لاحد فى زمن المساواة اعتقاد فى أحد ، لما بين الكل من التشابه . غير ان هذا التشابه يجعلهم يثقون تمام الثقة بحكم الجمهور لانهم لا يتصورون ان الحقيقة لا تكون من جانب العدد الاكبر وفيه ذلك الجم الغفير من المستنيرين »

قد يذهب بعضهم الى ان حالة انتخابات الجماعات تتحسن بقصر حق الانتخاب على أهل الكفاآت . أما أنا فلا أسلم بذلك لحظة واحدة للسبب الذى قدمته وهو انحطاط درجة الجماعات العقلية على اختلافها كيفما كان تركيبها . فان الناس يتساوون فى الجماعة دائما . وليس رأى الاربعين عضواً الذين تتركب منهم جمعية المعارف فى مسألة عامة أحسن من رأى أربعين سقاء . ولا أظن ان رأيا أقره الاقتراع العام وشدد النكير عليه من أجله كاعادة الامبراطورية كان يتغير لو ان المقترعين كانوا كلهم من أهل الادب والعلماء . لأن الذى يجعل الرجل ذا بصر بالاحوال الاجتماعية ليس كونه يعرف اللغة اليونانية أو الرياضيات أو كونه معماريا او طبيباً بيطريا أو طبيباً أو محامياً . أنظر الى علماء الاقتصاد عندنا ترهم كلهم من المستنيرين وأغلبهم مدرسون أو أعضاء فى جمعية المعارف ومع ذلك لم يتحدوا على مسألة عامة أبداً كحماية التجارة أو توحيد معدن النقود وهكذا . ذلك لان علمهم ليس الا صورة مخففة من الجهل العام . وكل جهل يستوى امام المسائل الاجتماعية التى لا حصر للمجهول فيها

وعلى ذلك اذا قصرنا الانتخاب على قوم أفعموا علما لانصل الى نتيجة أحسن مما لو تركناه فى يد أهل زماننا لان أولئك العلماء يعملون على الأخص بحسب مشاعرهم ومنافع طائفتهم . فلا نكون قد ذللنا شيئاً من العقبات التى أمامنا بل نكون قد زدنا عليها بدخولنا تحت نير الاستبداد الذى تنفرد به الطوائف

نتيجة انتخاب الجماعات واحدة وهو انما يترجم عن الرغائب والحاجات التى للشعب بمقتضى فطرته سواء كان الانتخاب عاما أو محصوراً فى طبقة أو طبقات . فى جمهورية أو ملوكية . فى فرنسا او البلجيك او اليونان او البرتقال او اسبانيا

ومتوسط المنتخبين فى كل أمة يمثل روح شعبها . وهو لايكاد يتغير من جيل الى جيل

وهنا نجد مرة أخرى نظرية الشعب ذات الاهمية الكبرى وتلك النظرية الأخرى المشتقة منها وهى ضعف تأثير النظامات والحكومات فى حياة الامم . هذه الامم انما تسير طبقاً لأرواح شعوبها . وبعبارة أخرى طبقاً لما ورثته عن آبائها وهو ماتمثله تلك الروح . فالشعب هو مستودع احتياجات كل يوم . وتلك الاحتياجات هى الملوك الخفية التى بيدها زمام ما لنا

الفصل الخامس

المجالس النيابية

أكثر الصفات العامة للجماعات المختلفة العناصر غير الاسمية توجد فى الجماعات النيابية ـ بساطة الافكار ـ الانفعال وحدوده ـ الافكار الثابتة والافكار المتقلبة ـ السبب فى ان التردد هو الغالب ـ شأن القواد ـ سبب نفوذهم ـ هم الذين لهم الكلمة فى المجلس بحيث ان رأى الجميع يرجع الى رأى عدد محدود من الاعضاء ـ سلطان القواد الشامل ـ اركان خطابتهم ـ الالفاظ والصور ـ فى ان الضرورة تقتضى ان يكون القواد مقتنعين بما يلقون من الآراء وأن يكونوا من قصار النظر ـ فى انه يستحيل ان تقبل آراء الخطيب الذى لانفوذ له ـ غلو مشاعر الهيئة سواء كانت طيبة او رديئة ـ فى انها تتحرك احيانا بحركة نفسية ـ فى جلسات «المتعاهدين» ـ فى الاحوال التى لايكون للهيئة فيها صفة الجماعة ـ تأثير الاختصاصيين فى المسائل الفنية ـ منافع النظام النيابى ومضاره فى كل امة ـ فى ان النظام موافق لاحتياجات العصر لكنه يؤدى الى تبذير الاموال وتحديد جميع الحريات شيئاً فشيئاً ـ خلاصة الكتاب

—

المجالس النيابية جماعات مختلفة العناصر غير اسمية . وهى تتشابه كثيراً فى صفاتها وان اختلفت طريقة تكوينها بحسب الامم والازمان . ولروح الشعب فيها أثر هو اضعاف تلك الصفات أوتقويتها . الا أنه لا يمنع من ظهورها البتة. وتتشابه المجالس النيابية فى البلاد المختلفة كاليونان وايتاليا والبرتقال واسبانيا وفرنسا وأمريكا من حيث المداولات والقرارات تشابها عظيما فتتشابه الصعوبات الناشئة عن ذلك أمام جميع الحكومات

النظام النيابى هو أقصى ما تصبو اليه الامم المتحضرة فى العصر الحاضر لانه يعبر عن فكر سائد فى الناس وان كان علم النفس يراه خطأ وهو أن العدد الكثير أقدر من العدد القليل على البت فى الامور بالعقل والروية والاستقلال

والصفات المميزة للجماعات توجد فى المجالس النيابية من بساطة الافكار . وسرعة الانفعال وقابلية التأثر برأى الغير والغلو فى المشاعر ونفوذ القواد . الا أن لها بمقتضى تكوينها الخاص بعض صفات لا تشترك فيها مع بقية الجماعات واليك بيانها

أما بساطة الافكار فمن أهم ميزات المجالس النيابية فتشاهد عند جميع الاحزاب خصوصاً عند الامم اللاتينية الميل الى حل المسائل الاجتماعية العويصة بابسط المبادىء النظرية وبقوانين عامة يطبقونها على جميع الاحوال . ومن الواضح أن المبادىء تختلف باختلاف الاحزاب . لكن الرجل فى الجماعة يرمى دائماً الى تقدير تلك المبادىء باكثر من قيمتها ويذهب فيها الى آخر ما تؤدى اليه من النتائج . لذلك كانت الافكار التى تمثلها المجالس النيابية هى المتطرفة

واكمل مثال لبساطة المجالس النيابية جماعة « اليعاقبة » أيام ثورتنا الكبرى فقد كانوا كلهم من ارباب المذاهب وكلهم من المناطقة . وكانت رؤوسهم ملأى بالكليات المقولة بالتشكيك . لذلك كان همهم تطبيق المبادىء المقررة من غير التفات لظروف الاحوال . فصح ما قيل عنهم من انهم عبروا الثورة ولم يروها . فهم قوم اتخذوا مبادئهم مرشداً وظنوا انهم يتمكنون بها من خلق هيئة اجتماعية

جديدة ويرجعون بالمدنية الراقية الى مدنية كانت للأمة قبل تطورها الحالى .
كذلك كانت الوسائل التى استعملوها فى تحقيق أحلامهم من أبسط الوسائل .
فاذا اعترضتهم عقبة استعملوا العنف فى تذليلها وكانت الروح السارية فيهم جميعاً واحدة وان كانوا فرقا شتى

وأما التأثر بالرأى فقابلية المجالس النيابية له شديدة . والتأثير يأتى من قبل القواد ذوى النفوذ كما هو الشأن فى الجماعات كلها الا ان لقابلية المجالس النيابية فى هذا الباب حدوداً واضحة يجب ذكرها .

فلكل عضو رأى ثابت فى المسائل المتعلقة بأقليمه لا يمكن زحزحته عنه . ولا تؤثر فيه حجة أو دليل . فلو بعث (ديموستين) ما أمكنه أن يقنع عضواً بعدم وجوب حماية المهن التى لبعض أصحابها النفوذ الاول فى الانتخابات . ذلك لان التأثير الذى وقع عليه أولا من الناخبين أوجد له رأيا ثابتاً وعطل فيه ملكة الاقتناع بما يخالفه . ولعل أحد نواب مجلس العموم الانكليزى ممن طال عهدهم فيه كان يشير الى تلك الافكار التى رسخت من قبل فى ذهن كل عضو حتى صارت لا تقبل التغيير ولا التعديل لتأثير ضروريات الانتخاب حيث قال : « سمعت مدى خمسين عاما قضيتها فى (ويستمنستر) الافا من الخطب فالقليل منها حملنى على تغيير رأيى ولكن لم يكن لواحدة منها أن تحملنى على تغيير صوتى عند الاقتراع »

واذا دارت المناقشة فى مسألة عامة كاسقاط الوزارة أو تقرير ضريبة جديدة وهكذا تقلبت الآراء وظهر نفوذ القواد . لكنه لا يساوى مالهم فى الجماعات الاعتيادية . اذ لكل حزب قواد قد يعادل نفوذهم نفوذ قواد الحزب الآخر . فيصبح الاعضاء بين مؤثرين متضادين ولذلك يترددون . فيقر الواحد منهم على أمر وبعد ربع ساعة يعمل بنقيضه كأن يقبل فى القانون نصاً يهدم المبدأ الذى أقامه عليه مثال ذلك الاقرار على قانون يبيح لاصحاب المعامل حق اختيار العمال وطردهم . ثم الاقرار فى الجلسة ذاتها على تعديل يجعل هذا الحق أثراً بعد عين

وضح مما تقدم ان لكل مجلس فى كل دور أفكاراً ثابتة وأخرى غير ثابتة ولما كان الغالب فيما يعرض عليه هى المسائل العامة كان التردد فى الآراء هو الغالب لما يجتمع فى نفس كل عضو من تأثير الناخبين وتأثير القواد فى المجالس

على ان القواد هم أصحاب الكلمة فى أغلب المسائل التى ليس للاعضاء فيها رأى ثابت من قبل . وضرورة أولئك القواد ظاهرة . لانهم يوجدون فى كل هيئة نيابية عند جميع الامم بعنوان رؤساء الفرق . أولئك الرؤساء هم السلاطين فى كل مجلس . لان الرجل فى الجماعة لا يستغنى عن السيد . ومن هنا كانت قرارات المجالس النيابية لا تمثل الا رأى عدد صغير من أعضائها

والقليل من تأثير القواد فى تلك المجالس راجع الى فصاحتهم . وكثيره مستمد من نفوذهم . برهانه أنهم اذا فقدوا نفوذهم انعدم تأثيرهم

وهذا النفوذ شخصى لادخل فيه للاسم والشهرة . ومن غرائب الامثلة ما أتى به موسيو (جول سيمون) فى عرض كلامه فى مجلس نواب سنة ١٨٤٨ الذى كان عضواً فيه قال :

« لم يكن لويز نابوليون شيئاً مذكوراً قبل أن يتم له السلطان بشهرين »

ارتقى (فيكتور هيجو) منبر الخطابة فلم ينل نجاحا بل سمعه الناس كما يسمعون (فيلكس بايات) ولكنهم لم يصفقوا له مثله . قال لى (فولايل) عن (بايات) انه لا يحب أفكاره ولكنه كاتب كبير وهو اكبر خطباء فرنسا كذلك (ادجار كينيه) على علمه وقوة مفكرته لم يكن له شأن يذكر فان صيته ذاع قبل افتتاح المجلس فلما جاء اليه تخلفت عنه شهرته

والمجالس النيابية هى المكان الوحيد فى الارض الذى يضعف فيه نور الذكاء الفائق . فليس هناك للفصاحة قيمة الا ما وافق منها أحوال الزمان والمكان . ولا اهتمام الا بالحذم التى أديت للاحزاب لا للوطن . واذا كانت المجالس النيابية قد أكبرت شأن (لامارتين) سنة ١٨٤٨ و (تيير) سنة ١٨٧١ فما ذلك الا بتأثير الضرورة الشديدة الحالة ولهذا بعد أن زال الخطر شفى الناس من واجب

الشكران ومن الخوف معاً »

نقلت هذا القول للاستفادة من الحوادث الواردة فيه لا من البيان الذى اشتمل عليه لانه يدل على علم ناقص جداً بأحوال النفس . اذ الجماعة لا تكون كذلك اذا عرفت لقائدها ما قد يكون أداه من الخدم للوطن أوللاحزاب على حد سواء . والجماعة انما تطيع قائدها موقتة بسلطان نفوذه فيها من دون أن يقترن ذلك عندها بمنفعة أو شكران

لذلك اذا كان للقائد نفوذ كبير فتسلطه عظيم . وكلنا يعرف هذا النائب الشهير الذى كانت له الكلمة العليا عدة سنين بما أوتى من النفوذ حتى فقد مركزه على أثر بعض الحوادث المالية . كانت اشارة منه تكفي لقلب الوزارة وقد أوضح أحد الكتاب مقدار تأثير ذلك النائب فى الكلمات الآتية « انا مدينون لموسيو فلان وحده بكوننا اشترينا التونكين بثلاثة أضعاف ماتساويه وبكوننا لم نضع فى مدغشقر الا قدما متزعزعة . وبكوننا غبنا فى مملكة كاملة جنوب نهر النيجر وبكوننا أضعنا ما كان لنا من النفوذ الخاص فى الديار المصرية الا ان نظريات موسيو (فلان) قد كلفتنا من الخسائر اكثر من مصائب نابوليون الاول (١)

على انه لا ينبغى تشديد النكير على هذا القائد وان كان قد كلفنا كثيراً لان اكثر نفوذه جاءه من تتبع الرأى العام . ولم يكن الرأى العام اذا ذاك فى المسائل الاستعمارية كما هو عليه الآن . ومن النادر أن يسبق القائد الرأى العام والغالب انه يسير خلفه ويتبعه فى الخطأ .

للقائد فى اقناع قومه وسائل غير النفوذ هى التى ذكرناها مراراً . ولا بد له فى قيادتهم من أن يكون قد وقف على حقيقة الروح السارية فيهم ولو من

---

(١) لعل المؤلف يشير الى موسيو كليمانسو الذى سمى هدام الوزارات ولو تأخر صدور هذا الكتاب الى الآن لغير المؤلف رأيه فى الرجل القابض اليوم على زمام السياسة الفرنساوية المتربع فى رئاسة نظارها ونظارة خارجيتها وله فى السياسة العامة مقام كبير (م)

طريق الوجدان وعرف طريقة الكلام معهم . فينبغى له على الأخص أن يعرف مالبعض الالفاظ من التأثير الذى يجذب نفوس السامعين وان يكون على جانب من الفصاحة المخصوصة التى تقوم بالتوكيد الشديد الخالى من الدليل وبالصور الأخاذة المحلاة بالحجج الناقصة . هذه فصاحة موجودة فى كل مجلس من المجالس النيابية حتى البرلمان الانكليزى الذى هو اكثرها اعتدالا

قال الحكيم الانكليزى (ماين) « من السهل أن نقرأ دائما مداولات لمجلس العموم مدارها تبادل كليات ضعيفة وشخصيات حادة فلمثل هذه الصيغ الكلية تأثير كبير فى خيال أهل الديموقراطية المحضة . ومن الميسور على الدوام جعل الجماعة تقبل القضايا العامة اذا قدمت لها بألفاظ جذابة ولو كانت من القضايا التى لم يحققها أحد . وربما كانت لا تحتمل التحقيق »

يؤخذ من ذلك انه لاحد لتأثير « الالفاظ الجذابة » المذكورة وكم اتينا على بيان قوة الالفاظ والجمل . وما ينبغى أن يختار منها مما يمثل صوراً مؤثرة . واليك جملة تمثل ما تقدم اقتطفناها من خطابة أحد قواد مجالسنا « يوم يركب السياسى الافين والفوضوى السفاك ظهر باخرة واحدة تقودهما الى منفاهما فى الاراضى الحمية ذلك هو اليوم الذى يتحادث فيه الرجلان ويظهر كل واحد منهما لأخيه ممثلا احدى صورتى نظام اجتماعى واحد »

فالصورة التى يمثلها هذا المقال واضحة . وقد شعر خصوم الخطيب كلهم انهم مهددون بها . فهم يرون الاراضى الحمية مقرونة برؤية الباخرة التى تقودهم اليها لانهم من حزب أولئك السياسيين الذين يهددهم ذلك العقاب . هنالك تولاهم الفزع الذى كان يدخل قلوب (المتعاهدين) اذ يسمعون (روبسبيير) يهددهم بمنجلة [1] الاعدام فيدينون له على الدوام

من مصلحة القواد أن يأتوا بالمبالغات التى لا يجوز فى العقل تصورها فمن ذلك ما اكده الخطيب الذى نقلنا عنه الصورة المتقدمة ولم يعارضه احد معارضة

---

(١) آلة اعدام تفصل الرأس عن بقية الجسد

تذكر من ان ارباب المصارف المالية والقسوس يواسون الذين يقذفون قنابل الديناميت . وان مديرى الشركات المالية الكبرى يستحقون الجزاء الذى يستحقه الفوضويون . لمثل هذه التوكيدات دائما أثر فى الجماعات . ولا يرمى الخطيب بالتطرف كيفما بالغ وأكد كما انه لا حرج عليه وان تعسف فى الطعن واشتد فى الهجاء ولا نظير لهذه الفصاحة من حيث التأثير فى السامعين لانهم أن جنحوا للمعارضة خافوا تهمة الخيانة أو الاشتراك مع المجرمين

(١٢٧) سادت هذه الفصاحة فى المجالس النيابية فى كل زمان كما قدمنا وهى تشتد فى أزمنة الشدة . ومن أفيد المطالعات قراءة الخطب التى كان كبار الخطباء يلقونها فى مجالس الثورة فقد كانوا يشعرون بالحاجة الى قطع الكلام حيناً فحيناً لتقبيح الجرم وتمداح الفضيلة . ثم تنهمر الشتائم من أفواههم على الظالمين . ويقسمون انهم اما أن يعيشوا أحراراً واما أن يموتوا . ويقف الحاضرون يصفقون كمن بهم جنة . ثم يسكن جأشهم فيجلسون

قد يكون القائد أحيانا ذكيا متعلما ولكن ذلك يكون مضراً به فى الغالب لان الذكى يميل الى بيان ما فى المسائل من أوجه التعقيد . ويقبل المناظرة والتفاهم وذلك يؤدى الى التسامح والاغضاء ويكسر كثيراً من حدة العقيدة وحدة العقيدة لازمة للرسل . وكان اكبر القواد فى الأمم خصوصاً قواد الثورة الفرنساوية من قصار العقول جداً وكان اكبرهم تأثيراً أشدهم قصراً فى العقل . فان الانسان ليدهش مما يراه من التخبط عند مطالعة رسائل أعظمهم قدراً وهو (روبسبيير) ومن لم يقرأ غيرها من ترجمة حياته لا يجد ما يعلل به قوة ذلك المسيطر الجبار قال بعضهم يصفها « صيغ كلية جارية على كل لسان . وشقشقة فى الفصاحة المحفوظة من كتب التربية والتعليم على الطريقة اللاتينية اجتمعنا فى نفس خلوها اكثر من انحطاطها . نفس تكادلا تعرف من وسائل الهجوم أو الدفاع الا ما تعوده التلاميذ من قول الواحد منهم لزميله « هل من مبارز » وليس هناك رأى ولا تدبير ولا شاردة . عنف ممل وشدة مسئمة . فاذا فرغ القارئ من تلك المطالعة

المملة شعر بالحاجة الى قول أف كما كان يفعل الرجل الظريف (كاميل ديمولان)

من المفزعات ما يناله الرجل ذو النفوذ من السلطة اذا صدقت عقيدته وقصر عقله . على انه لا بد لاستجماع ذلك فى الانسان حتى يستهين بالصعاب ويعرف كيف يريد . وللجماعات شعور كالالهام يهديها الى معرفة الرجل الذى أودعت فيه قوة العزيمة المبنية على صدق العقيدة فتدين لسلطته

انما ينجح الخطباء فى المجالس النيابية بما لهم من النفوذ لا بقوة البراهين التى يقيمونها . وأصدق شاهد على ذلك انه اذا وقع لاحدهم ما يفقده نفوذه فانه يفقد معه تأثيره أعنى قدرته على ادارة الآراء كما يشاء

وأما الخطيب المجهول الذى يذهب الى الجلسة بعد أن يكون قد أعد خطابته ودعمها بالحجج ولم يكن لديه الا الحجج والادلة فلا رجاء له حتى فى الاصغاء اليه . وقد وصف موسيو (ديكوب) وهو أحد النواب ومن علماء النفس المدققين النائب الذى لا نفوذ له فى السطور الآتية « اذا استوى ـ الموصوف ـ على منبر الخطابة أخرج من محفظته أوراقا فنشرها أمامه على الترتيب وشرع يخطب مطمئناً . وهو يفتخر فى نفسه بأنه سيبث عقيدته لتكين روح سامعيه . لانه وزن أدلته وحررها . وأعد شيئاً كثيراً من الاحصاآت والحجج . وأيقن ان الحق فى جانبه . وان معارضه لا يثبت أمام الحقيقة الناصعة التى يأتى بها . هكذا يبدأ معتمداً على صواب رأيه واصغاء اخوانه لاعتقاده انهم لا يطلبون الا السجود أمام الحق . وبينما هو يخطب اذ تأخذه الدهشة من اضطراب الحاضرين . ثم يتفزز بالضوضاء الناتجة من ذلك الاضطراب . ويتساءل كيف لا يسود السكون . وما السبب يا ترى فى هذا الانصراف العام . وما الذى يدور على ألسنة أولئك الذين يتحادثون فيما بينهم وما السبب القوى الذى يحمل ذاك على ترك مجلسه . يتساءل الخطيب هكذا والحيرة تعلو جبهته فيفرك حاجبيه ويمسك عن الكلام ويشجعه الرئيس فيعود بصوت مرتفع . فيزيد الاعضاء فى عدم الاصغاء اليه . فيجهر ويهتز . فتزداد الجلبة حواليه . ويعود لا يسمع نفسه فيمسك عن الكلام مرة أخرى ثم يخشى أن يدعو

سكوته الى أصوات (الاقفال الاقفال) فيرجع الى خطابته بما فيه من قوة . وهناك تعلو الجلبة ويختلط الحابل بالنابل مما لا يقدر على وصفه الواصفون»

ومن خواص المجالس النيابية انها اذا تحرك شعورها وارتقت فى الهياج الى درجة معلومة تصير كالجماعات العادية المختلفة العناصر سواء بسواء فتغلو الى النهاية فى مشاعرها . وتذهب الى أقصى مراتب الشجاعة وآخر درجات التطرف فى القسوة اذ ذاك لا يصير الرجل نفسه بل يبعد عنها بعداً يحمله على تقرير ما يخالف منافعه كل المخالفة

والذى يقرأ تاريخ الثورة الفرنساوية يدرك الى أى حد تفقد المجالس شعورها وتخضع لما يطلب منها وان خالف أعز المنافع لدى أفرادها كان من أكبر الضحايا أن يتنازل الشرفاء عن امتيازاتهم ومع ذلك فعاوده غير مترددين ذات ليلة من ليالى « الدستورية » وكان تنازل المتعاهدين عن تقديس أشخاصهم منذراً لهم بالويل والدماء ولكنهم فعلوا وما خشوا تقتيل بعضهم بعضا ولا أرهبهم اعتقاد كل واحد منهم انه مسوق الى الاعدام لامحالة كما يسوق هو اليوم اخوانه اليه غير انهم كانوا قد وصلوا الى حالة من التهيج جعلتهم كآلات تتحرك من نفسها على ماوصفنا فلم يعد هناك من الاعتبارات مايقوى على صدهم عن اتباع الهوى المتمكن من صدورهم اليك ماقاله أحدهم (بيلوفارين) مما يوضح ما ذكر « ما كنا لنريد القرارات التى يلومنا الناس من أجلها قبل أن نصدرها بيومين اثنين بل بيوم واحد ولكن المحنة هى التى كانت تمليها » وما أصدق ما كتب

كانت جلسات التعاقد متفردة باللاشعور كما عرفت بالهياج قال تاين « لقد أقروا وشرعوا ما كانوا يجزعون له أشد الجزع ولم يكتفوا فى ذلك بالحماقيات والجنونيات . بل شرعوا الآثام وقتل الابرياء واعدام الاصدقاء وانضم حزب الشمال الى حزب اليمين وقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد ارسال (دانتون) الى المنجلة ووكان رئيسه الطبيعى وموجد الثورة وقائد زمامها ومال اليمين الى الشمال فقرر معه بالاجماع وسط التصفيق الشديد أفظع الأوامر التى أصدرتها

الحكومة الثورية وبين اصوات الاعجاب والنشوة تدفق الميل والانعطاف نحو (كولوت دير بوا) و (كوطون) و (روبسبيير) فجدد (المتعاقدون) انتخاب أعضاء الحكومة الثورية وابقاءها على منصة الحكم وهى الحكومة القاتلة التى كان يبغضها السهل لجرمها ويمقتها الجبل لانها كانت تحصده اصطلح السهل مع الجبل واتفق القليل مع الكثير ورضى الجميع بمساعدة قاتليهم على اعدامهم ثم فى يوم ٢٢ من الشهر تقدمت رقاب تلك الحكومة الى التقطيع وبعد ذلك بقليل تقدمت اليه أيضاً تلك الرقاب عقب خطاب روبسبيير »

قد يكون الوصف أقتم ولكنه الحق الواقع والصفات المتقدم ذكرها توجد فى المجالس النيابية المتهيجة التى سكرت بخمر فكر من الافكار فتصبو كالقطيع المتحرك يسوقه كل دافع وقد وصفها على هذه الحال موسيو (سبوللر) وهو شورى لا يشك أحد فى صدق افكاره الديمقراطية وصفا دقيقا نذكره للقراء نقلا عن (المجلة الادبية) ويرى القارىء فيه جميع المشاعر المتطرفة التى قدمنا ذكرها وتتمثل فيها التقلبات الشديدة التى تنتقل بها الجماعات من الضد الى الضد من لحظة الى أخرى . قال موسيو (سبوللر)

« ان التنافر والحسد وسوء الظن ثم الثقة العمياء والآمال التى لانهاية لها أوردت الحزب الجمهورى حتفه فلقد كان له من السذاجة مالا يساويه الا سوء ظنه المطلق . لا يدرك شرعية الامور ولا يفقه للنظام معنى . ذعر وآمال لا تنتهى حالتان يستوى فيهما الريفى والطفل فسكونهما يضارع قلقهما . ووحشيتهما تماثل طاعتهما ذلك شأن المزاج الذى لم يرتب والتربية التى انعدمت . لا يندهشان لامر وكل أمر يفقدهما الصواب يرتجفان ويرهقان وفيهما الاقدام والشجاعة . فيقتحمان النار . ويجفلان من الظل . ويجهلان العلل والمعلولات ويسارعان الى الفتور مسارعتهما الى التهوس . فيهما استعداد للفزع والذهول . ويتخبطان من الافراط الى التفريط فلا يعرفان الوسط ولا القدر الذى ينبغى أبداً . ألين من الماء تنعكس فيهما جميع الالوان . ويتشكلان بكل الصور أى رجاء فى حكومة تؤسس

فوقهما »

لكن من حسن الحظ ان جميع الصفات التى أتينا على ذكرها فى المجالس النيابية لاتظهر دائما . لان تلك المجالس لاتكون جماعات الا فى بعض الاحايين. والغالب ان كل عضو من أعضائها يحفظ ذاتيته على استقلال . ومن هنا صح لها أن تسن من القوانين الفنية ماهو حسن للغاية . نعم ان الذى يضع هذه القوانين انما هو اختصاصى واحد يحضرها فى سكون مكتبته وكل قانون أقره المجلس هو صنع فرد واحد لا صنع المجلس كله . ولكن القوانين التى وضعت بهذه الكيفية هى أحسن مايشرع وانما يكون القانون ضاراً اذا أدخلت عليه فى الهيئة تعديلات رديئة فجعلته من صنع الجماعة ذلك لان صنع الجماعة أحط درجة من عمل الفرد دائما وفى كل مكان . والاختصاصيون هم الذين ينجون المجالس النيابية من الوقوع فى الاعمال المضرة التى لايهذبها الاختبار . فالاختصاصى يكون عند ذلك قائداً وقتياً يؤثر فى المجالس ولا تأثير للمجلس فيه

المجالس النيابية هى أحسن الوسائل التى اهتدت اليها الامم فى حكم نفسها وبالاخص فى التخلص مما استطاعت من نير المظالم الشخصية مع ماعليه المجالس المذكورة من صعوبة الحركة . وهى على التحقيق أرقى أشكال الحكومات ان لم يكن عند الكافة فعند الفلاسفة والمفكرين والكتاب وأهل الفنون والعلماء وبالجملة عند كل عنصر من العناصر التى تتكون منها ذروة الحضارة فى الامم

على اننا اذا نظرنا اليها من الجهة العملية لانرى لها الا ضررين كبيرين. الاول تبذير الاموال تبذيراً لامناص منه . والثانى الترقى فى تحديد الحرية الشخصية

فأما الضرر الاول فهو نتيجة عدم تبصرة الجماعات الانتخابية . فاذا قدم أحد الاعضاء طلبا لسد حاجة اجتماعية ديمقراطية ولو فى الظاهر كتقرير معاش لجميع العملة أو زيادة مرتبات بعض خدمة الريف والمعلمين وهكذا لايسع الاعضاء والآخرين أن يرفضوه لخوفهم من الناخبين حتى لا يظهروا بمظهر من لا يهتم بمصالحهم ولو كانوا على يقين من أن الطلب يبهظ الميزانية ويفضى الى تقرير ضريبة

جديدة . اذن يستحيل عليهم الرفض . أما نتائج الزيادة فى المصروفات فهى بعيدة ولا تأثير لها فى اشخاصهم الا قليلا بخلاف مالو رفضوا الطلب فان النتيجة تتجلى يوم يضطرون للوقوف امام الناخبين وما ذلك اليوم ببعيد

وهناك سبب قوى أخر يستلزم زيادة المصروفات وهو الاضطراب لمنح المصروفات المحلية اذا لا يجرأ عضو فى المجلس على رفض طلبها لكونها فى منفعة الناخبين مباشرة . ولانه لا يتمكن من نيل ما يريده لمركزه الا اذا أقر مايطلبه زملاؤه لمراكزهم (١)

وأما الضرر الثانى وهو التدرج فى تقييد الحرية الشخصية تدرجا قهريا كذلك فهو ضرر محقق وان كان أقل وضوحا من الاول . وهو نتيجة القوانين العديدة التى لا تدرك المجالس النيابية نتائجها تماماً لبساطة أفكارها ولكونها تحسب أنها مضطرة لتقنينها وليست القوانين الا قيوداً .

---

(١) ذكرت جريدة (ايكونوميست) فى عددها الصادر بتاريخ ٦ ابريل سنة ١٨٩٥ بياناً غريباً للنفقات التى تتكلفها تلك المصالح المحلية فى سنة واحدة وخصوصاً السكك الحديدية فكان كما يأتى : الخط بين (لانجاى) وسكانها (٣٠٠٠) نسمة وهى منزوية فى أحد الجبال و (بوى) خمسة عشر مليوناً . والخط بين (بومون) وسكانها (٣٥٠٠) نسمة و (كاستيل سازاران) سبعة ملايين . والخط بين (اوست) وسكانها (٥٢٣) نسمة و (سيكس) وسكانها (١٢٠٠) نسمة سبعة ملايين . والخط بين (براد) وكفرة (اوليت) وسكانها (٧٤٧) نسمة سبعة ملايين وهكذا . وبلغ مجموع كلفة السكك الحديدية التى تقرر انشاؤها فى سنة ١٨٩٥ وحدها ولم يكن لها منفعة عامة مطلقاً تسعين مليوناً وستبلغ مصروفات تنفيذ قانون معاشات العمال ١٦٥ مليون بحساب ناظر المالية أو ٨٠٠ مليون بحساب (لوروابوليو) عضو جمعية العلوم ولا يخفى أن استمرار زيادة المصروفات على هذا النحو يؤدى الى الافلاس . وقد وصل اليه كثير من الممالك فى أوروبا مثل البرتقال واليونان واسبانيا وتركيا ومنها ما اصبح قادما عليه مثل ايتاليا .

والظاهر أنه لا مفر من هذا الخطر لان انكلترا نفسها لم تتمكن من اتقائه مع أن نظامها النيابى اكمل النظامات لأن النائب الانكليزى اكبر النواب استقلالا أمام ناخبيه وقد أشار (هربرت سبنسر) منذ زمن بعيد الى أن الزيادة الظاهرية فى الحرية الشخصية لا تلبث أن تتبع بنقص حقيقى فيها ثم عاد الى هذه النظرية فى كتابه الذى سماه (الفرد والحكومة) ومما قاله « جرى التشريع منذ ذلك الحين على النحو الذى أشرت اليه . فما اسرع ما كثرت اللوائح القسرية وكلها ترمى الى تحديد الحرية الشخصية . وذلك من طريقين . الاول ان كل سنة قد أربت على سابقتها فى كثرة اللوائح التى تلزم الافراد بواجبات كانوا احراراً منها وتفرض عليهم أعمالا كانت مباحة ان شاؤا فعلوها وان شاؤا اهملوها . والثانى زيادة الضرائب العامة التى يجب على الافراد القيام بها وذلك يحرمهم من ثمرات كسبهم بقدر ما يزيد فى المال الموكول صرفه الى مشيئة الموظفين العموميين »

وهذا الترقى فى تحديد الحريات يظهر فى جميع البلاد بصورة واحدة لم يذكرها (هربرت سبنسر) وهى أن أحداث تلك القوانين المقيدة ينتج حتما زيادة عدد الموظفين المكلفين بتنفيذها ثم هو يقوى نفوذهم . ومآل أولئك الموظفين بهذه الطريقة صيرورتهم سادة البلاد المتمدنة الحقيقيين . لان طائفتهم هى التى لا يناالها أثر التقلبات المستمرة التى تطرأ على حكومة البلاد ولذلك كانت سيطرتها شديدة على قدر ثبوت قدمها فى الوظائف فهى الطائفة الوحيدة التى لا تبعة عليها من أعمالها ولا شخصية لاحد فى مجموعها وهى باقية على الدوام ومن المعلوم

= الا أنه لا داعى للاهتمام كثيراً بما ذكر لأن الناس قبلوا نقص الفائدة التى تدفعها تلك البلاد على ديونها بمقدار أربعة الاخماس من دون امتعاض كبير . وهى تفاليس محكمة التدبير تسمح لامها بأصلاح ميزانياتها . على أن الحروب والاشتراكية والمزاحمات الاقتصادية تضمر لنا مصائب أشد وانكى . وقد دخلنا فى زمن التفكك والتحلل العام . فعلينا الرضا بالعيش يوماً بيوم . وان لا نهتم بالغد لانه ليس فى ملكنا

أن أشد صور الاستبداد هى التى اجتمعت فيها تلك الصفات الثلاث

ان الاستمرار على سن هـذه القوانين واللوائح المقيدة لحرية الناس والتى تحيط بكل حركة من حركاتهم وان صغرت بسور من الاجراآت (البيزنطية) من شأنه أن يضيق دائرة العمـل الذى لا قيد فيه لـكن الامم قد خدعت فى خيالها فحسبت أن الاكثار من القوانين توكيد لضمان الحرية والمساواة وصارت تقبل كل يوم قيداً ثقيلا

على أنها لامهرب لهـا من نتيجة هذا الرضا فان التعود على احتمال النير كل يوم يفضى بها الى تطلبه وفقدان ملـكة الاقدام وقتل العزيمة فتصبح حينئذ أثراً بعد عين والآلات تنفعل بحركة غيرها لا ارادة ولا صلابة ولا قوة

واذا فقد الانسان المقدمات فى نفسه اضطر الى طلبها فى غيره وكلما ازداد عدم اهتمام الافراد وضعفهم اشتدت سطوة الحـكومة وقويت شوكتها بالضرورة. هنالك تضطر الى ابدال اقدامهم على الاعمال بأقدامها والقيام مقامهم فى الاخذ بيد المشروعات كلها والتداخل فى تنظيم سير الافراد دونهم لانهم أضاعوا ملـكة ذلك كله — وتصبح الحـكومة مكلفة بأن تعمل كل شىء وتدير كل شىء وتحمى كل شىء فتصير آلهاً قادراً . الا أن التجربة دلت على أن قدرة مثل هذا الاله لم تكن قوية ولم تدم الا قليلا

والظاهر أن الترقى فى تقييد الحريات عند بعض الامم التى تظن أنها متمتعة بها لما هى فيه من الاطلاق الصورى ناشىء من هرمها كما ينشأ عن هرم أى نظام كان . وذلك نذير دور الانحطاط التى لم تنج منـه مدنية حتى الآن

واذا قسنا الحاضر بالماضى ورجعنا الى العلامات التى تبدو من كل صوب حكمنا بأن عدداً كبيراً من مدنياتنا الحاضرة قد وصل الى اقصى حدود الهرم الذى هو طليعة الانحطاط والظاهر أنه لابد لجميع الامم من عبور هذه السبيل لان التاريخ يروى لنا انه دور كثيراً ما تجدد

ولقد يسهل بيان الادوار التى تتقلب فيها المدنيات بقول موجز وهو الذى

نريد أن نختم به هذا الكتاب فلعل فيه توضيحاً لأسباب قوة الجماعات

اذا سبرنا المدنيات التى سبقت مدنيتنا فى حالتيها الرقى والانحطاط فما الذى نعثر عليه

نعثر فى فجر هذه المدنيات على خليط من الناس مختلف الاجناس جمعتهم عفواً الهجرة والاغارات والفتوحات ولكونهم اختلفوا فى المحتد وتباينوا لغة ودياناً لم يكن بينهم من الرابطة العمومية الا سلطة الرئيس على ضعف اعترافهم بها . وفى تلك المجامع المختلطة نشاهد صفات الجماعات بأرقى صورها فلها منها الائتلاف الوقتى . والشجاعة والضعف . والاندفاع والقسوة . وعدم ثبات شىء من ذلك . ان هم الا قوم متوحشون

ثم دار الزمان فأدى وظيفته . وأخذت جامعة البيئة وتكرار التناسل وحاجات المعيشة الاجتماعية تؤثر أثرها شيئاً فشيئاً وبدأت اجزاء المجموع المختلفة تمتزج بعضها ببعض وتكون شعباً أى تركيباً ذا صفات عامة ومشاعر متشابهة تمكنها الوراثة كل يوم هكذا صارت الجماعة أمة وآن لهذه الامة أن تخرج من دائرة الهمجية على أنها لا تخرج منها الا اذا تكون لها مقصد عام تشخص اليه . وذلك لا يتم الا بعد مجهودات طويلة . ومغالبات متجددة على الدوام . وبدايات يخطئها الحصر . وسواء كان المقصد العام الوهية روما أو تعظيم اثينا أو نصرة الله فهو يكفى لتوحيد أفكار أفراد الامة وهى فى دور التكوين

هنالك تتولد مدنية جديدة بما تقتضيه من النظامات والعقائد والفنون وينجر الشعب وراء مقصده ويصل الى ما ينيله الابهة والجلال والقوة والاعظام نعم تعرض له أحوال يكون فيها جماعة الا انه يكون له خلف صفاتها المتقلبة ذلك الموجود القوى أعنى روح الشعب فهى التى تقيد تقلباته وتحددها وتضع للمصادفات نظاما مسنوناً

فاذا أتم الزمان صنعه الايجادى يبدأ بصنعه الاعدامى الذى لم ينج منه عابد ولا معبود فتقف المدنية عند وصولها الى حد معين من الشوكة والتشعب ومتى

وقفت اسرع اليها الانحطاط لا محالة فقد اقتربت الشيخوخة ودنت ساعة الاجل علامة تلك الساعة التى لا مفر منها تكون دائماً ضعف اليقين بالمقصد الذى اتكأت عليه روح الشعب وكلما انزوى عود هذا الخيال اندكت صروح الدين والسياسة والاجتماع التى كانت تستمد منه حياتها

كلما انزوى خيال الشعب فقد هو علة امتزاجه . وداعى وحدته . وموجد قوته . وتمت شخصية الافراد . وعظم الذكاء فيهم غير أن ذلك يصطحب بحلول الاثرة الشخصية المفرطة محل الاثرة القومية . ووراءه انطماس الاخلاق . وضعف القدرة على العمل . ويصبح ذلك التركيب الذى كان يكون امة — أى وحدة وان شئت فقل كتلة — جمعاً مؤلفاً من افراد غير مؤتلفين . لا رابطة بينهم الا الجامعة الصناعية الآتية من التقاليد والنظامات ومتى وصل الناس الى هذه الحال من افتراق المنافع واختلاف النزعات وعدم الاهتداء الى طريقة يحكمون بها أنفسهم جدوا فى طلب من يقودهم فى جميع اعمالهم وان صغرت فتأتى الحكومة بسلطانها وتبتلع كل شىء

واذا تم فقدان الخيال تم فقدان روح الامة . فتعود خليطا من الناس كل يعمل على شاكلته . وترجع الى ما كانت عليه فى بدايتها جماعة لها منها جميع الصفات الوقتية . فلا شعور . ولا أمل . هنالك تنعدم أساطين المدنية . وتمسى هدفا لحوادث الاتفاق . وتصير العامة سلطانة فى الناس . وتبدو طلائع المتوحشين . وقد يلوح على المدنية أنها باقية فى بهائها لان محياها لا يزال يضىء بما اكتسبته الاجيال الطويلة من البهجة والرواء ولكن الحقيقة انه بناء اكله السوس وفقد دعائمه واستعد للسقوط بأى عاصفة

فمن همجية الى حضارة وراء مقصد فى الخيال . ومن حضارة الى انزواء . فموت حين يضمحل الخيال . هذا مدار حياة الامم

فهرست

صحيفة

٢ مقدمة المعرب

٤ مقدمة المؤلف

٨ تمهيد

الباب الأول

روح الجماعات

١٦ الفصل الاول

المميزات العمومية للجماعات وقانون وحدتها الفكرية النفسانى

٢٤ الفصل الثانى

مشاعر الجماعات وأخلاقها

٤٢ الفصل الثالث

أفكار الجماعات وتعقلها وتخيلاتها

٥٠ الفصل الرابع

الصبغة الدينية التى تتكيف بها اعتقادات الجماعات

صحيفة

الباب الثانى

أفكار الجماعات ومعتقداتها

٥٥ الفصل الاول
العوامل البعيدة فى معتقدات الجماعات وافكارها

٧٢ الفصل الثانى
العوامل القريبة فى أفكار الجماعات

٨٤ الفصل الثالث
قواد الجماعات وطرقهم فى الاقناع

١٠٢ الفصل الرابع
حدود تقلب معتقدات الجماعات وأفكارها

صحيفة

الباب الثالث

أقسام الجماعات وبيان انواعها

الفصل الاول ١١٣

أقسام الجماعات

الفصل الثانى ١١٦

الجماعات الجارمة

الفصل الثالث ١٢٠

العدول المحلفون أمام محاكم الجنايات

الفصل الرابع ١٢٦

جماعات الانتخاب

الفصل الخامس ١٣٤

المجالس النيابية

تم الكتاب

[redacted]
لوبون ،غوستاف
روح الاجتماع
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01011047

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

301
L447pzA
1909
C.1
General Library

301.
L447pzA
1909
C.1